



عناصر الموضوع

97	مفهوم التوحيد
97	الألفاظ ذات الصلة
99	التوحيد حقيقة فطرية
11.	التوحيد أساس دعوة جميع الرسل
118	الربوبية والألوهية حقيقتا التوحيد
117	أساليب القرآن في الدعوة للتوحيد
177	الأدلة القرآنية على صحة التوحيد



مفهوم التوحيد

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (وح د) تدل على الانفراد().

والوَّحْدة: الانفراد^(۲).

و(أحد) اسم الله جل ثناؤه، لا يوصف شيء بالأحدية غيره؛ لأن أحدًا صفة من صفات الله التي استأثر بها، فلا يشركه فيها شيء، وليس كقولك: (الله واحد)، و(هذا شيء واحد)، لأنه لا يقال: شيء أحد (٣).

والتوحيد: الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له (٤).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحيّ:

عرف الجرجاني التوحيد بأنه: معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة (٥).

وعرفه السعدي بأنه: العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال والإقرار بتوحده بصفات العظمة والجلال أوإفراده وحده بالعبادة (٢).

ولم تأت مفردة (التوحيد) بهذه الصيغة في القرآن الكريم، وإنما استعمل القرآن الكريم جذرها (وحد) في معانٍ أخرى، لا صلة لها بموضوع البحث.

⁽٦) القول السديد ص٧.



⁽۱) انظر: مقاییس اللغة، ابن فارس ۲/ ۹۰.

⁽٢) الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٤٧.

⁽٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ١٢٧.

⁽٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٥٤٧.

⁽٥) التعريفات ص٦٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشرك:

الشرك لغة:

مأخوذ من شرك، ومنه: (أشرك بالله: كفر أي: جعل له شريكًا في ملكه تعالى الله عن ذلك)(١)، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحًا:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه (٢٠).

الصلة بين الشرك والتوحيد:

الشرك هو الظلم العظيم، ولا يغفره الله لصاحبه -إن مات عليه-؛ لأنه يناقض أصل التوحيد، ويخرج صاحبه عن الملة، ويحبط عمله ويخلّده في النار.

וצובונ:

الإلحاد لغة:

مادة (ل ح د) تدل على معنى ميل عن استقامة، فيقال: (لحد السهم عن الهدف)، أي: عدل عنه، ولحد الرجل في الدين: طعن وحاد عنه وعدل وجادل ومارى. ولحد، أي: مال عن طريق القصد، وجار وظلم (٣).

والملحد: «الطاعن في الدين المائل عنه»(٤).

الإلحاد اصطلاحًا:

هو: «الميل، والجور، والانحراف عن الإسلام، أو الإيمان»(٥).

الإلحاد المعاصر: الإلحاد المصطلح عليه في هذا العصر يعني: إنكار وجود الله، والقول بأن الكون وجد بلا خالق، وأن المادة أزلية أبدية، واعتبار تغيرات الكون قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها، واعتبار ظاهرة الحياة، وما تستتبع من شعور وفكر عند

⁽١) تاج العروس، الزّبيدي، ٧٧/ ٢٢٤.

⁽٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.

⁽٣) انظر: مقاييس اللّغة، ابن فارس ٥/ ١٩٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٩٥، مختار الصحاح، الرازي ص ٢٤٧.

⁽٤) المعجّم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/٠٥٠.

⁽٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧٢.

الإنسان، من أثر التطور الذاتي في المادة(١).

الصلة بين الإلحاد والتوحيد:

العلاقة بينهما علاقة تضاد، فالملحد انحرف عن التوحيد والدين القويم.

٢ العبادة:

العبادة لغةً:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحده وأطاعه، وانقاد وخضع وذلّ له، والتزم شرائع دينه، وأدّى فرائضه (٢).

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: «العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصّت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل»(٣).

وقال الراغب: «العبودية: إظهار التّذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التّذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»(٤).

الصلة بين العبادة والتوحيد:

وعلاقة العبادة بالتوحيد علاقة واضحةٌ، فالله جل وعلا هو المستحق للعبادة دون سواه، وتفريده جل وعلا بالعبادة على اختلاف صورها هو حقيقة التوحيد (توحيد الإلهية) وهو مضمون شهادة: لا إله إلا الله.

⁽٤) المفردات، ص ٣١٨.



⁽١) انظر: التعريفات الاعتقادية، سعد آل عبد اللطيف ص ٥٨، الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو ص ٣٢٧.

⁽٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٤٤٨.

⁽٣) التوقيف، ص ٢٣٤.

التوحيد حقيقة فطرية

القلوب مفطورة على حب خالقها وتأليهه:

إن الإيمان بوجود الله جل وعلا والإيمان بوحدانيته تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، له دلائله الكثيرة، وشواهده المتعددة، وفي مقدّمة هذه الدلائل والشواهد (الفطرة)، إن التوحيد حقيقةٌ فطريّةٌ قبل أن يكون معرفة نظريّةٌ جدليّة، وإنّ أرق أساليب الإقناع وأبلغ أساليب الإذعان بأصول الإيمان: إحالة المخاطبين إلى فطرهم وغرائزهم (1)، وكذلك كان منهج القرآن الكريم في اعتماده دليل (الفطرة) في معالجة قضايا التوحيد.

لقد جاءت كلمة (الفطرة) بلفظها مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِللِّينِ حَنِيفًا فَطَرَتَ اللّهِ اللَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيّها لَا بَدِيلَ لِخَلِقِ اللّهِ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيّها لَا بَدِيلَ لِخَلِقِ اللّهِ ذَلِكَ الدّيثُ الْقَيّمُ وَلَاكِئِ اللّهِ اللّهِ عَلَمُونَ ﴾ وَلَاكِئِ اللّهِ اللهِ عَلَمُونَ ﴾ وَلَاكِئِ اللّهِ اللهِ عَلَمُونَ ﴾ والروه: ٣٠].

وقد فسر العلماء (الفطرة) بمعانٍ مختلفةٍ متقاربةٍ، وأنسبها في هذا المقام أنّ المقصود بـ(الفطرة): هو الشعور المغروس في النفس الإنسانية بوجوده سبحانه، وبتوحيده

سبحانه وتعالى بربوبيته وألوهيته، إن هذه الغريزة الدينية المركوزة في داخل كل إنسان منذ بداية خلقه، هي البوصلة التي توجّه قلبه وعقله إلى توحيد الله تعالى قبل أيّ دليلِ آخر(۲).

والسنة النبوية أيضًا تؤكد ذلك: أن الله تعالى قد خلق الإنسان مؤمنًا بربه، متَّجهًا إليه بفطرته بالطاعة والعبادة، وأنَّ غايته هي تحقيق العبودية والتوحيد، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلّ مولودٍ يولد على الفطرة)، وفي رواية: (على هذه الملّة)، (فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه)، وفي رواية: (ويشرّكانه)، (كما تولد البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟!، حتى تكونوا أنتم تجدعونها) قالوا: يا رسول الله؛ أفرأيت من يموت منهم وهو صغيرٌ؟، قال: (الله أعلم بما كانوا عاملين)، ثمّ يقول أبو هريرة رضي الله عنه: واقرءوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا نَبْدِيلَ لِخُلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] (٣).

⁽۱) انظر: منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، تامر متولي ص ١٦٦.

⁽٢) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ٤٦.

⁽٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، رقم ١٣٥٨، ٢/ ٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم ٢٠٤٧، ٢٠٥٨،

فلم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: (يسلمانه)؛ لأنّ الإسلام موافقٌ للفطرة(١).

بل هو الفطرة المركوزة في النفس الإنسانية، وهو الوضع الطبيعي لها، فلا يحتاج إذًا لتأثير الأبوين، أما باقي المذاهب الإلحادية فهي تغطي الفطرة، وتنكسها وتصادمها؛ لذلك فهي لا تأتي على النفس من داخلها، إنما تأتي بمؤثر خارجي (٢).

ويضرب الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك مثلًا محسوسًا، وهو ولادة البهيمة سالمة من العيب، ثم يطرأ عليها العيب بعد ذلك بجناية الإنسان.

يقول ابن القيم رحمه الله: «فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغيير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابد أن يغيرهما، فغير فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها، وغير الصورة بالجدع والبتك، فغير الفطرة إلى الشرك، والخلقة إلى البتك والقطع، فهذا تغيير خلقة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة».

ويقول كذلك: «فالقلوب مفطورةٌ على حبّ إلهها وفاطرها وتأليهه، فصرف ذلك

شرح الطحاوية، ابن أبي العزّ ١/ ٣٤.

التألّه والمحبّة إلى غيره تغييرٌ للفطرة (٣٠٠). وبما أن معرفة الله وتوحيده فطرةٌ في النفوس؛ لذلك لمّا شك الأقوام المكذبون لرسلهم في الدعوة لتوحيد الله، استغرب الرسل هذا الشك فقالوا:

الفطرة السليمة والعقل الصحيح ينطقان الإنسان بتوحيد الخالق:

والمخاطبون حين نزول القرآن يعرفون ربهم الذي خلقهم، وتنطق فطرهم بالحق عندما تسأل، ويؤازر هذه الفطرة العقل الصحيح؛ إذ جعله الله تعالى نورًا للإنسان.

قال تعالى: ﴿ قُلْ لِينِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِ آلْ الْأَرْضُ وَمَن فِيهِ آلْ الْأَرْضُ وَمَن فِيهِ آلْ الْأَلَا كَانَتُمْ تَصَامُونَ اللهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ اللهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ اللهِ قُلْ آفَلا تَذَكَّرُونَ السَّيْعِ وَرَبُّ الْمَكْنَوْنِ السَّيْعِ وَرَبُّ الْمَكْنُونِ السَّيْعِ وَرَبُ الْمَكْنُونِ السَّيْعِ وَرَبُ الْمَكْونَ اللهِ قُلْ مَنْ بِيلِهِ مَلْكُونَ اللهِ قُلْ مَنْ بِيلِهِ مَلْكُونَ اللهِ قُلْ مَنْ بِيلِهِ مَلْكُونَ اللهِ مَلْكُونَ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ قُلْ مَنْ بِيلِهِ مَلْكُونَ عَلَيْهِ فَلَ مَنْ بِيلِهِ مَلْكُونَ عَلَيْهِ اللهِ اللهِ قُلْ مَنْ اللهِ اللهِ

ويقول تعالى: ﴿ وَلَهِن سَأَلْتَهُم مَّنَ خَلَقَ السَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخِّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْفَمَرَ لَيَقُولُنَّ السَّمْوَتِ ٢١].

وقد أدرك الأعرابيّ بفطرته السليمة وعقله الصحيح أنّ هذه المخلوقات العظيمة، من أرض وسماء، وليل ونهار،

⁽٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦.

⁽٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم ١٠٧/١.

وشمس وقمر، وإنسان وحيوان، ونبات وكواكب، ورياح وسحاب، وغيرها، تدل على الخالق تبارك وتعالى، حيث قال: «البعرة تدلّ على البعير، والأثر يدلّ على المسير، ليلٌ داج، ونهارٌ ساج، وسماءٌ ذات أبراج، أفلا تدلّ على الصانع الخبير؟!»(١).

الفطرة تنطق الحيوان والجمادات أيضًا بالتوحيد:

وهذه الغريزة الفطرية لم تكن مقتصرة على النفوس البشرية وحدها، بل حتى الطير والجمادات وغيرها، قد فطرها ربّها وخالقها على تسبيحه وتحميده وتنزيهه، نطقًا لا يفهمه إلاّ الذي أنطقها.

قال تعالى: ﴿ تُسَيِّحُ لَهُ السَّهَوَ ثَالَسَبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ فَإِن مِن شَقْءٍ إِلَّا يُسَيِّحُ بِمِدِهِ وَلَكِن لَا نَفْقَهُونَ تَسَبِيحَهُمُّ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ أَلْرَسَرُ أَنَّاللَّهَ يُسَيِّحُ لَهُ مَنَ فِي السَّمَوْنِ وَأَلْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَنَفَّتُ كُلُّ قَدْعَلِم صَلَانَهُ وَتَسَيِّيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١]. وقال تعالى: ﴿ أَلْرَ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسَجُدُ لَهُ مَنَ فِي السَّمَانُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مَن فِي السَّمَاوَتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ وَالِيجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالذَّوَابُ وَكَثِيرُ

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"والمقصود إذا كانت هذه الجمادات قد فطرت على معرفة ربها وتسبيحه وتنزيهه، والإنسان أشرف منها، فلأن يفطر على معرفته بربه بطريق الأولى والأحرى؛ لما ركّب فيه من العقل والتمييز والفطنة»، إلى أن يقول: "وهذا الهدهد طير من الطيور، وفي نظرنا عديم العقل، يصيح كغيره من الطيور، قد خاطب سليمان بأعظم التوحيد، وأعلمه بغير ذلك، فقال: "أحَطتُ بِمَا لَمَ وأعلمه بغير ذلك، فقال: "أحَطتُ بِمَا لَمَ وأعلمه بغير ذلك، فقال: "أحَطتُ بِمَا لَمَ وأعلمه بغير ذلك، فقال: "أحَطتُ بِمَا لَمَ

إلى قوله: ﴿ أَلَهُ كُمْ إِلَهُ إِلَّا هُو رَبُّ ٱلْعَرْقِ اللَّهِ اللَّهِ وَلَهُ ٱلْعَرْقِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّا اللَّا اللَّا اللَّلَّا اللَّالِي اللَّالِيلُولَا اللَّهُ اللَّاللَّ اللَّهُ الللَّا

هذا كله كلام الهدهد، كما اتفق على ذلك المفسرون»ا هـ(٢).

منهج القرآن في الدعوة إلى التوحيد بتحريك الفطرة وإيقاظها:

وحيث إن القرآن الكريم يعتبر هذه القضية -قضية معرفة وجود الله والإيمان به وتوحيده - أمرًا فطريًا في النفوس البشرية السليمة، وحقيقة بدهية لا تحتاج إلى جدال أو نقاش، فكل إنسان عاقل يدرك بنفسه هذه الحقيقة، بما أودعه الله تعالى فيه من فطرة يحس بها، دون الحاجة إلى منهج إضافي يسلكه لمعرفة ربه خالقه ورازقه؛ لذلك

⁽٢) المصدر السابق ص ٣٣٩- ٣٤٠.

⁽۱) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ص ٣٣٨.

فإن منهج القرآن الكريم ومسلكه في هذه القضية، البدء بالفطرة يوقظها، ويذكّرها بما هو مغروس في أعماقها؛ ليجد أنها معترفة ومقرة بوجود الخالق العظيم، وأنها في ذلك لا تحتاج إلى دليل.

والدلائل التي تحرّك هذه الفطرة، وتشير إلى وجود الله تعالى أكثر من أن تحصى، إنها تنبعث من كل شيء على وجه الأرض، بل ومن كل شيء في السماء، أضف إلى ذلك النظام البديع، والدقة المتناهية في صنع هذه المخلوقات، والترتيب في سيرها وحركتها، فيدرك الإنسان بعقله وبصيرته أنّ هذا النظام وذلك الإبداع، لا يمكن أن يحدث من غير محدث، أو يوجد من غير موجد؛ لأنّ تلك المخلوقات عاجزة عن إيجاد ذلك النظام الدقيق، والترتيب المحكم من تلقاء نفسها(۱).

قيمة التزام التوحيد والتديّن الصحيح في إرواء الفطرة:

ولأن عقيدة التوحيد ليست غريبة عن الفطرة أو مغايرة لها، بل هي تلائم الفطرة وتنميها ولا تصادمها، فهي العقيدة الوحيدة التي تستطيع أن تشبع الجوعة الفطرية التي لا تشبعها النظم الفلسفية، ولا المذاهب الوثنية، ولا السلطان السياسي، ولا الثراء

المال*ي*(۲).

فمهما استعلنت المذاهب المادية الإلحادية وتزخرفت، ومهما تعددت الأفكار والنظريات، فلن تغني الأفراد والمجتمعات عن الدين الصحيح، ولن تستطيع أن تلبي متطلبات الروح والجسد، بل كلما توغل الفرد فيها أيقن تمام اليقين أنها لا تمنحه أمنًا، ولا تروي له ظمأ، وألا مهرب منها إلا إلى الدين الصحيح.

فالتدين الحق -الذي يعتمد على إفراد الله بالتوحيد، والتعبد له وفق ما شرع- هو عنصر ضروري للحياة؛ ليحقق المرء من خلاله عبوديته لله رب العالمين، ولتحصيل سعادته وسلامته من العطب والنصب والشقاء في الدارين، وهو ضروري لتكتمل القوة النظرية في الإنسان، فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته، ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا، وهو عنصر ضروري لتزكية الروح وتهذيب قوة الوجدان؛ إذ العواطف النبيلة تجد في الدين مجالًا ثرًا، ومنهلًا لا ينفد معينه تدرك فيه غايتها".

⁽١) المصدر السابق ص ٣٣٦.



⁽٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦.

⁽٣) الإسلام أصوله ومبادئه، محمد السحيم ٢/ ٤٨-٠٥.

انحراف الفطرة وتشوّهها بجناية الإنسان والشيطان:

وقد يقال هنا: لو كان التوجّه إلى الله أمرًا فطريًّا حقًّا، لما عبد النّاس في مختلف العصور آلهةً شتى، فهذا واقعٌ مسلّمٌ به يخالف المدّعى.

والجواب: أنّ الفطرة -كما سبق- تدعو المرء إلى الاتجاه إلى الخالق، لكنّ الإنسان تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف، ففيما يغرسه الآباء في نفوس الأبناء، وفيما يلقيه الكتّاب والمعلمون والباحثون في أفكار الناشئة ما يبدّل هذه الفطرة ويقذرها، ويلقى عليها غشاوة، فلا تتجه إلى الحقيقة.

وقد يقال: إذا تركنا الطفل من غير أن نؤثّر في فطرته، هل يخرج موحدًا عارفًا بربه؟!، فنقول: إذا ترك شياطين الإنس البشر، ولم يدّنسوا فطرهم، فإنّ شياطين الجنّ لن يتركوهم، فقد أخذ الشيطان على نفسه العهد بإضلال بنى آدم.

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَيعِزَّنِكَ لَأَغُوبِنَهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أَمُحُعِينَ اللهُ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣](١).

وأعطي الشيطان القدرة على أن يصل إلى قلب الإنسان، كما في الحديث الصحيح: (إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدّم، وإنّي خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًّا) أو

قال: (شيئًا)^(۲).

والقرآن الكريم وصف الشيطان المطلوب الاستعادة منه بأنه: ﴿الَّذِي يُوسَوِسُ فِ صُدُورِ النَّاسِ ﴾ [الناس:

وقد صحّ أيضًا أنّ لكل إنسان قرينًا من الجنّ، يأمره بالشرّ، ويحثه عليه، وفي القرآن الكريم: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي صَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٢٧].

و كما أمد الله الإنسان بملك يهديه ويؤيده، فإنه كذلك يمده بشيطان يوسوس له، ويزين له السّوء، ويغريه بالمنكر، ويدعوه إلى الفتنة، يستوي في ذلك الأنبياء وغيرهم. قال تعالى: ﴿ وَكَنَاكِ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَعِي عَدُوًا شَينَطِينَ ٱلإنسِ وَٱلْجِنِ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضِ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ عُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢] (٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من عندي ليلا، فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، -وفي روايةٍ: فأدخلت يدي في شعره-، فقال: (ما لك يا عائشة، أغرت؟)، قلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال: (أقد جاءك شيطانك؟)، قلت: يا رسول الله، أو معي

⁽١) العقيدة في الله، عمر الأشقر ص ٦٩-٧٠.

⁽۲) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب التكبير والتسبيح عند التعجب، رقم (۲۲۱۹ ، ۲۸۸ ، عن صفية أم المؤمنين رضي الله عنها.

⁽٣) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ١٤٣.

شيطانٌ؟ قال: (نعم)، قلت: ومع كلّ إنسانٍ شيطانٌ؟ قال: (نعم)، قلت: ومعك يا رسول الله؟، قال: (نعم، ولكن ربّي أعانني عليه حتّى أسلم)(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكل به قرينه من الجنّ) قالوا: وإيّاك يا رسول الله؟ قال: (وإيّاي، إلاّ أنّ الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلاّ بخير) (٢).

وشياطين الجنّ يقومون بدور كبير في إفساد الفطرة وتدنيسها؛ لأنّ أعمالهم تتّجه دائمًا إلى التمرّد على الله، وإلى التفريق والتمزيق والتخريب والتدمير، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، ووصل ما أمر الله به أن يقطع، فما من شر في الأرض ولا فساد في الوجود، إلا ولهم به صلة.

وهم الذين زيّنوا للأمم السابقة سوء العمل، وحسّنوا لهم الكفر والمعاصي، ودعوهم إلى تكذيب الرّسل ومخالفة أوامر الله، ولا تزال هذه أعمالهم (٣).

قال تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدُ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أَسَمِ

- (۱) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه، رقم ۲۱۱۸/٤،۲۸۱۵.
- (۲) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه، رقم ٢١٦٧/٤، ٢٨١٤
 - (٣) العقيدة في الله، عمر الأشقر ص ١٤٠.

مِن مَبْلِكَ فَزَيْنَ لَمُمُمُ ٱلشَّيْطَنُنُ أَحْمَلُهُمْ فَهُوَ وَلِيُهُمُ ٱلْيُوْمَ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ٦٣].

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته: (ألا إنّ ربّي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم ممّا علّمني يومي هذا، كلّ مالٍ نحلته عبدًا حلالٌ، وإنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا...) إلى آخر الحديث (٤).

فالشياطين هي التي دعت إلى تحريف الدين، والخروج على الفطرة، وإلى الإشراك بالله، وحرّمت الحلال، وأحلّت الحرام، ولا تزال الشياطين تقعد للإنسان بكلّ طريق صادّةً عن سبيل الله، ومحاولةً صرفه عن جلائل الأعمال.

ففي حديث سبرة بن فاكه (أو: أبي فاكه) رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ الشّيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟!، فعصاه فأسلم، ثمّ قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك؟!،

⁽٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم ٢٨٦٥، ٤/ ٢١٩٧.

وإنّما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطّول، فعصاه فهاجر، ثمّ قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النّفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال، فعصاه فجاهد)، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (فمن فعل ذلك كان حقّا على اللّه عز وجل أن يدخله الجنّة، ومن قتل كان حقّا على الله عز وجل أن يدخله الجنّة، وإن غرق كان حقّا على اللّه أن يدخله الجنّة، أو وقصته دابّته كان حقّا على اللّه أن يدخله البخنة، أو وقصته دابّته كان حقّا على اللّه أن يدخله البحنة، الله أن يدخله البحنة) (۱۱).

والشيطان هو الذي قام بدور رئيس في محاولة القضاء على دعوة الإسلام في أول صدام له مع أعدائه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانَ الْمَعْمُ الشَّيْطَانَ الْمَعْمُ الشَّيْطَانَ الْمَعْمُ الْبَوْمَ مِن الْعَمْدُ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْبَوْمَ مِن الْنَاسِ وَإِنِّ جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِعْتَانِ النَّاسِ وَإِنِّ جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِعْتَانِ تَكْمَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِي بَرِيَّةٌ مِنكُمْ لَكُمْ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِي بَرِيَّةٌ مِنكُمْ لِي تَكُمْ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّ أَخَافُ اللَّهُ وَاللَّهُ شَدِيدُ اللَّهُ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْمِقْالِ فَي اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ شَدِيدُ اللَّهُ وَاللَّهُ شَدِيدُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِ اللَّهُ الْمُعْمُ اللَّهُ الْمُعْمَالِكُ اللَّهُ الْعُلْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْعُلِيْ اللَّهُ الْعُلْمُ اللَّهُ الْعُلْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْعُلْمُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُنْ الْمُ الْعُلْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُنْ اللَّهُ اللَّهُ الْمُنْ اللَّهُ الْمُنْ اللْمُنْ اللَّهُ الْمُنْ اللَّهُ الْمُنْ الْمُنْ ال

وهذا الشيطان هو الذي يزين لكل فرد ما تهفو إليه نفسه، ويميل إليه هواه

من حب للجنس، أو طمع في المال، أو حرص على المنصب، أو تطلّع إلى الجاه، أو إيثار للاستبداد، أو ميل إلى الطغيان، بل إنه ليتسلط على المتدينين أنفسهم؛ ليزيدوا في شرع الله، أو ينقصوا منه؛ ليطوّعوا الدين لأهوائهم، ويخضعوه لشهواتهم.

وهو الذي يغري العداوة والبغضاء بين الناس، فيفرق بين الأخ وأخيه، وبين الزوج والزوجة، وبين طوائف الأمة وجماعاتها، وهو الذي يوقد نيران الحروب بين الأمم والشعوب، وينفخ فيها لتهلك الحرث والنسل، وتأتى على الأخضر واليابس.

وكلما كان الشيطان أقدر على الشر، كان أقرب منزلة وأعلى قدرًا لدى رئيسه إبليس لعنه الله.

عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ إبليس يضع عرشه على الماء، ثمّ يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنةً. يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا، قال: ثمّ يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتّى فرّقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت)(٢).

إن كل ما يعانيه الإنسان من فتن وويلات،

⁽۲) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه، رقم ۲۱۲۷/۲،۲۸۱۳.

⁽۱) أخرجه أحمد، رقم ۱۵۹۵۸، ۳۱۵/۲۵، والنسائي في سننه الصغرى، كتاب الجهاد، باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، رقم ۲۱/۳۱۳۲.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٩٧٩، ١١٨٦/٦.

إنما هو من نتاج إبليس وجنوده الأشرار (۱). وعودٌ على بدء، فلأجل كلّ هذا الانحراف الناشئ عن الدّخائل المبطلة من جنايات الإنسان والشيطان في تلويث الفطرة، فقد جاء تمام الآية الكريمة في الفطرة قوله تعالى: ﴿ وَالِكَ ٱلدِّينُ ٱلْمَيْتُ الْمَيْتُ الْمُيْتُ الْمَيْتُ الْمَيْتُ الْمُيْتِ الْمُرْتِ الْمُيْتِ الْمُيْتِ الْمُلْمِلُونَ الْمُنْتُمْ الْمُنْتُلُلُهُ الْمُنْتُ الْمُنْتُ الْمُيْتِ الْمُنْتُ الْمُنْ الْمُنْتُ الْمُنْتِ الْمُنْتُ الْمُنْتُلُونَ الْمُنْتِلُكُ الْمُنْتُ الْمُنْتُ الْمُنْتُ الْمُنْتُ الْمُنْتُ الْمُنْتُلُونَ الْمُنْتُ الْمُنْتُلُونَ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُونُ الْمُنْتُلُونُ اللْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُلُونُ اللَّهُ الْمُنْتُلُونُ الْمُلْمُلُونُ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُلُونُ الْمُنْتُ

فكثيرٌ من الناس قد فقدوا الاعتقاد والمعرفة والإدراك لتلك الحقيقة العظيمة المرتبطة بحياة البشر ودينهم وأعمالهم (٢).

المصائب قد تجلو الفطرة وتصحّح مسارها:

وكثيرًا ما تنكشف الحجب عن الفطرة المشوّهة؛ فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها، عندما تصاب بمصاب أليم، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشر عونًا، وتفقد أسباب النجاة، فكم من ملحد عرف ربه وآب إليه عندما أحيط به، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرّ نزل به.

قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّذِى يُسَيِّرُكُونِ اللَّهِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُدْ فِ الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيجٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَلَةَتُهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَلَةَ هُمُ

اَلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانِ وَظَنُّواْ أَنَّهُمُ أُحِيطَ بِهِمَّ دَعُوااللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَيِنْ أَجَيَّتَنَا مِنْ هَلَاِهِ لَنَكُونَكَ مِنَ الشَّكِرِينَ ﴾ [بونس: ٢٢] (٣).

ومهما بلغ الإنسان في الطغيان والكفر والعناد، تبقى هذه الفطرة لا يستطيع القضاء عليها مهما كابر في ذلك، وتظل دلائلها تظهر وهو يشعر أو لا يشعر.

قال تعالى: ﴿وَيَعَمَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُواً فَأَنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَلِقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

وفرعون أجرم طاغية في البشر؛ أنكر وجود الله، ودعا الناس إلى عبادته، وهدد موسى عليه السلام إن اتخذ إلها غيره، قال له موسى عليه السلام كما قصّ الله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَمَوُلاَهِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَوْتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآبِرَ وَإِنِي لَأَظُنْكُ رَبُ ٱلسَّمَوْتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآبِرَ وَإِنِي لَأُظُنْكُ يَغِرْعَوْنُ مَشْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ثم كانت العاقبة أن قال فرعون وهو في أحضان الموج وقد أدرك الغرق: ﴿ اَمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهُ إِلَا ٱلَّذِي مَامَنتُ بِدِه بَنُوا إِسْرَويلَ وَأَنَّا مِنَ ٱلمُسْلِمِينَ ﴾ [بونس: ٩٠] (٤).

أقدمية التوحيد وأسبقيته على الشرك:

وإذا كان التوحيد حقيقةً فطريّة، فمن البدهيّ أن يكون الأصل في البشرية هو

⁽١) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ١٤٠-

⁽٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢.

⁽٣) حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، محمد الغامدي ص ٢٠٠.

⁽٤) العقيدة في الله، عمر الأشقر ص ٧١.

التوحيد، وأن يكون الشرك انحرافًا طارئًا دخيلًا عليها، فالتوحيد له أقدميته وأسبقيته على الشرك، خلافًا لما تقول به بعض النظريات الضالة في تطوّر الأديان.

لقد حكى الله تعالى في القرآن الكريم أن أبا البشرية الأول آدم عليه السلام وذريته كانوا على التوحيد، يتبعون منهجًا إلهيًّا منزّلًا إليهم من ربهم تبارك وتعالى، فهم أول البشر، يدينون بالتوحيد الخالص، وبذلك يكون التوحيد سابقًا للشرك، وليس تطوّرًا عنه، ولم يعرف الشرك والانحراف إلا بعد قرون، حينما انحرف القوم عن دين الله وتوحيده، فبعث الله تعالى لهم نوحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده.

قالُ تعالى: ﴿ لَقَدَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ مَنَالَ يَقَوْمِهِ مَقَالَ يَقَوْمِهِ مَقَالَ يَقَوْمِ مَقَالَ يَقَوْمِ أَمَّدُوا أَلِنَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَاهِ غَيْرُهُ وَإِنَّ أَنَّا لَكُمْ مِنْ إِلَاهِ غَيْرُهُ وَإِنَّ الْخَواف: أَخَافُ عَلَيْمِ ﴾ [الأعراف: وه] (١).

بل لقد بين الله سبحانه أن البشرية كانت أول أمرها على التوحيد ثم طرأ عليها الشرك وتعدد الآلهة في آية واضحة، وهي قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَمِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّيْمِيْنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكَنْبَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَقُوا فَيْ وَمَا اخْتَلَقُوا فَيْهِ إِلّا الّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا فَيْهِ إِلّا الّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَكُ بَعْيَا بَيْنَهُمُّ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقد روى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بين نوح وآدم عشرة قرونٍ كلّهم على شريعةٍ من الحقّ، فاختلفوا فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين»، قال: «وكذلك في قراءة عبد الله:

ويؤيد هذا التفسير لهذه الآية، الآية الأية الأخرى في سورة يونس: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أَمْنَةً وَحِدَةً فَأَخْتَكَفُوأً وَلَوْلَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أَمْنَةً وَحِدَةً فَأَخْتَكَفُوأً وَلَوْلَا كَانَاسُ إِلَّا أَمْنَةً وَحِدَةً فَأَخْتَكَفُوأً وَلَوْلَا كَانَاسُ إِلَّا اللَّهُ مَا يَعْمَا فِيهِ يَخْتَكِفُونَ ﴾ [يونس: ١٩].

وعن قتادة قال: «ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الهدى وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك؛ فبعث الله عز وجل نوحًا، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض» (٣).

وجمهور المفسرين يقولون بأن الناس كانوا أمة واحدة على الهدى والتوحيد، فظهر فيهم الشرك عن طريق تعظيم الموتى، فبعث الله إليهم رسله؛ ليردوهم إلى التوحيد، قال

⁽١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢١٧.

⁽۲) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر نوح النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٤٠٠٩، ٢

وصححه الحاكم على شرط البخاري، ولم يتعقبه الذهبي.

⁽٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١١٥/١.

فتوعد جلّ ذكره على الاختلاف، لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثمّ كان الاختلاف بعد ذلك، لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان، ولو كان ذلك كذلك، لكان الوعد أولى بحكمته جل ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد؛ لأنها حال إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحالٌ أن يتوعد في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك»(١).

ورجّح ابن كثير أيضًا قول ابن عباس وقتادة معلّلا ترجيحه بقوله: «لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام؛ فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»، ويقول: «ثم أخبر الله تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن

الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام،...، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان؛ فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة»(۲).

ونقول أيضًا أنه لا عجب في ذلك ولا غرابة؛ لأن الإنسان كلّما كان قريبا من النبع، كان الماء أكثر صفاءً ونقاءً، وكلما ابتعد عن النبع، وجد الماء أقلّ صفاءً ونقاءً؛ لما يطرأ عليه من الأذى، وما يداخله من القذى، والشوائب التي تنصب فيه، وهكذا كانت البشرية الأولى على الفطرة والتوحيد؛ لقرب عهدها بربها تعالى، ثم اختلطت بعد ذلك الينابيع، وتضافرت العوامل التي بعد ذلك الينابيع، وتضافرت العوامل التي ظهور الشرك طاربًا بعد ذلك التوحيد، فكان انحرافًا عنه (٣).

تفنيد مزاعم تطور الأديان من الشرك إلى التوحيد:

يزعم بعض الباحثين الغربيين -ممّن يسمّون بعلماء مقارنة الأديان-، وكذلك مقلدتهم من الكتاب المسلمين بأن الشرك سابق على التوحيد، وأن عبادة الإله قد تطورت من جيل إلى جيل، حتى وصلت

⁽١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٨٠.



⁽٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٢٥٧.

⁽٣) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢٢٠.

إلى التوحيد الخالص، حتى زعم بعضهم أن عقيدة الإله الأحد عقيدة جد حديثة، وأنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامي.

وقد اعتمد هؤلاء على نظرية التطور والارتقاء، حيث قاسوا التوحيد في حياة البشر على نمو وتطور العلوم والصناعات التي تنمو وتتطور بسبب الجهد البشري(١).

وقد يظن بعض المسلمين أن في ذلك ترقيًا للإنسان وتزكية للإسلام؛ لأنهم يزعمون أن البشرية لما كانت في حال من التأخر كانت تعبد آلهة متعددة، ولما ترقّت وتقدّمت أصبحت تعبد إلهًا واحدًا؛ فنشأت ديانات التوحيد، يظنون ذلك ويدافعون عنه، وإننا لنأسف كل الأسف لانخداعهم بهذه الأفكار الغربية، وتبنيهم لتلك النظرية الملحدة (٢).

ولا يخفى أن هذه الأباطيل فيها إنكار سافر لكل ما سبق من الوحي السماوي والسنة النبوية، علاوةً على منافاتها للفطرة والمنطق في مكابرة صارخة، ولو كان هناك تطورٌ حقًا - كما تقول هذه النظريات -، لكان من الطبيعي والمنطقي أن يكون هذا التطور من الوحدة إلى الكثرة؛ لأن الواقع يدل على ذلك، فأنت عندما تبدأ بالعدّ والحساب

-مثلًا- تبدأ بالواحد وتنتهي بما بعده من كثرة، وليس العكس^(٣).

أما استدلال القائلين بأسبقية الوثنية على التوحيد بآثار الحفريات التي زعموا بأنها تدل على أن الناس في بادئ الأمر قد تدينوا بالوثنية، ثم تطورت عباداتهم مع تطورهم الفكري، فإن ذلك ما هو إلا مجرد التخمينات والتخرصات الوهمية، والتي لا تقاوم القرآن الكريم، والسنة الثابتة.

ومن الممكن والمعقول جدًا أن تكون تلك الآثار التي اكتشفوها قد وقعت لذرية آدم عليه السلام، وقد حدث الشرك الأول كما أشرنا في قوم نوح عليه السلام، والدليل متى تطرق إليه الاحتمال، فلا يصح أن يكون دليلًا يحتج به، فكيف وأدلتهم تصطدم بنصوص القرآن والسنة؟!(٤).

⁽٣) المصدر السابق ص ٢٢٠.

⁽٤) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١/ ٦٥-٨٦.

⁽١) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ٥٨/١.

⁽٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢٢١.

التوحيد أساس دعوة جميع الرسل

إن الدعوة إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى، وتقرير توحيده، وتنزيهه عن الند والصاحبة والولد، وإفراده بالعبادة، والتذلل إليه، والانقياد لأمره وحكمه، هي القضية الأساسية التي من أجلها بعث الله جميع أنبيائه ورسله، وقد جاء ذلك واضحًا جليًا فيما قصه الله تعالى علينا في القرآن الكريم من دعوة الرسل إلى أممهم وأقوامهم (۱)، يقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «اعلم أنّ التّوحيد أوّل دعوة الرّسل، وأوّل منازل الطّريق، وأوّل مقام يقوم فيه السّالك إلى الله عز وجل» (۱).

ويلاحظ أن الجانب الأهم في دعوة الرسل عليهم السلام هو توحيد الله تعالى بالعبادة وإفراده بها، فلم يبعثهم الله لدعوة الناس إلى مجرد الإيمان بالله وأنه خالقهم، إذ هم مقرون بذلك تناسقًا مع الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها، ولم تكن قضية وجود الله في يوم من الأيام هي القضية التي يقف الناس عندها، إلا في فترات قليلة، ولظروف خاصة عند بعض الأوروبيين وللين عرف عنهم الإلحاد، وحاولوا أن يجدوا له فلسفة خاصة؛ تبريرا لانحرافهم

وفساد فطرتهم (۳).

ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنه -سبحانه وحده-خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة، كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَغِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندادًا يُحِيُّونَهُمُ كَصُبِ اللَّهِ وَالْمِعْ فَي اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ أَندادًا يُحِيُّونَهُمُ كَصُبِ اللَّهِ وَالْمِعْ فَي اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ أَندادًا يُحِيُّونَهُمُ مَ كَصُبِ اللَّهِ وَالْمِعْ فَي اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللْهُ اللْهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللْهُ اللَّهُ اللَّهُ اللْهُ اللْهُ اللَّهُ اللْهُ اللْهُ اللْهُ الل

فلما سووا غيره به في هذا التّوحيد كانوا مشركين، كما قال تعالى: ﴿ الْمَا عَدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ الشّمَوَتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَتِ وَالنُّورُ مُ ثُمّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِهِم يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١].

وقد علّم الله سبحانه وتعالى عباده كيفية مباينة الشّرك في توحيد الإلهيّة، وأنه تعالى حقيق بإفراده وليّا وحكمًا وربًّا، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَقَيْدُ وَلِيّا وَحكمًا وربًّا، فقال تعالى: يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنّ أُمِنْتُ أَنْ أَكُونَ وَالْأَرْضِ وَهُو مَنْ أَلْسُمُونَ وَالْأَرْضِ وَهُو مَنْ أَلْسُمْ وَلَا يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنّ أُمِنْتُ أَنْ أَكُونَ ﴾ [الأنعام: مَنْ أَلْسُمْ رِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال: ﴿ أَفَعَنَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال: ﴿ قُلَ آغَيْرَ ٱللَّهِ ٱبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءً ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

⁽٢) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ١/ ٢١.



⁽٣) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٣٠٥.

⁽١) المصدر السابق ١/ ٦٩.

والرازق وحده.

ولقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى وأكده بطريقين:

الأول: الطريق الإجمالي.

قال تعالى: ﴿ وَمَا آَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوجِى إِلَيْهِ أَنَّهُ ثُلاّ إِلَهَ إِلَّا آَنَا فَآعَبُدُونِ ﴾ [الأنساء: ٢٥].

فهذا تعميم على سبيل الحصر، بأن كل رسول قد أوحي إليه أن الله تعالى متصف بالوحدانية، لا إله إلا الله، ومستحق للتوحيد، وذلك في قول الله: ﴿ لاَ إِللهَ إِلاَ اللهُ ال

وقال تعالى في هذا المعنى أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ بَعَشْنَا فِي كُلِ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اَعْبُدُوا اللَّهَ وَاَجْتَى نِبُوا الطَّلْغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

هذه الآية تقرر أن الله تعالى قد بعث في كل أمة رسولًا، وكان أول دعوة كل رسول في كل أمة: أن اعبدوا الله ولا تشركوا به الطواغيت، والطواغيت: كل ما يعبد من دون الله تعالى، وهو مشتق من الطغيان.

وننوه إلى أن هذا الطريق الإجمالي في إثبات القرآن الكريم أن توحيد العبادة هو أساس دعوة الرسل، له صيغتان مختلفتان ومدلولهما واحد، ونمثّل لهما بقوله تعالى:

فلا وليّ ولا حكم ولا ربّ إلاّ الله، الذي من عدل به غيره، فقد أشرك في ألوهيّته ولو وحّد ربوبيّته-، فتوحيد الربوبيّة هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، وتوحيد الإلهيّة مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين (١).

ولذلك حكى الله تعالى عن الأقوام السابقين تعجّبهم من دعوة الأنبياء إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿ قَالُوٓا أَجِعْتَنَا لِنَمْبُدُ اللهَ وَحَدَهُ وَنَدَرُ مَا كَانَ يَمْبُدُ مَانَاوُنَا ﴾ وَحَدَهُ وَنَدَرُ مَا كَانَ يَمْبُدُ مَانِاوُنَا ﴾ [الأعراف: ٧٠].

أي: لنفرده بالعبادة ونخصه بها من دون الهتنا؟! فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم إفراد العبادة لله، ولم ينكروا الله تعالى، ولا قالوا: إنه لا يعبد، بل أقروا بأنه يعبد، وأنكروا كونه يفرد بالعبادة، فعبدوا مع الله غيره وأشركوا معه سواه واتخذوا معه أندادا، كما قال تعالى: ﴿فَلَا بَعْمَلُوا بِنَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعَلَّمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢].

فأرسل الله الرسل تأمر بترك عبادة كل ما سواه، وتبين أن هذا الاعتقاد الذي يعتقدونه في الأنداد باطل، وأن التقرب إليهم باطل، وأن ذلك لا يكون إلا لله وحده، وهذا هو توحيد العبادة، وقد كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، وهو أن الله هو الخالق وحده

.[09

⁽١) تجريد التوحيد المفيد، المقريزي ص ٧-٨.

وقوله: ﴿ اللَّهِ مَنْهُ نَلِيرٌ اللَّهَ أَيْنِي لَكُمْ مِنْهُ نَلِيرٌ اللَّهِ مِنْهُ نَلِيرٌ اللَّهِ مِنْهُ نَلِيرٌ وَمِود: ٢].

فإن مدلول الصيغة الأولى: الأمر بعبادة الله، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد غيره، ومدلول الصيغة الثانية: النهي عن عبادة غير الله، فالقرآن الكريم دعا لعبادة الله، ونهى عن عبادة غيره؛ لأن النفس البشرية بحاجة إلى النص القاطع على شطري هذه الحقيقة، فلم يكتف القرآن بالنهي الضمني المفهوم من الأمر الصريح – على ما هو مقرر في علم الأصول من: «أن الأمر بالشيء نهي عن ضده الذي لا يجتمع معه»، بالشيء نهي عن ضده الذي لا يجتمع معه»، بل أتى بالنهي الصريح عن عبادة غير الله؛ لأن كثيرًا من الناس يعبدون الله ويعبدون معه عمه غيره، فيقعون في الشرك ويحسبون أنهم مسلمون (۱).

الثاني: الطريق التفصيلي الاستقرائي: هذا الطريق يذكر فيه القرآن الرسل بأسمائهم، وكيف كان التوحيد رأس دعوتهم جميعًا، ومن ذلك:

ما جاء في قصة نوح عليه السلام وهو أول رسول من أولي العزم بعث إلى أهل الأرض. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا أَللَهُ مَا لَكُمُمِّنَ إِلَىٰهِ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

- ٢. قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَنْقَوْمِ أَعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمُ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُم اللّهُ وَالْعِراف: ٦٥].
- ٣. ونفس الألفاظ قال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ مَ عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ مَ صَلِحًا قَالَ يَعَوِّمِ اعْبُدُوا الله مَا لَحَمُ مِنْ إِلَيْهِ عَنْدُورُ ﴾ [الأعراف: ٧٣].
- إذ وهي الألفاظ التي جاءت على لسان شعيب عليه السلام، قال تعالى:
 وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبُٱ قَالَ يَعَوْمِ أَعْبُدُوا أَللَّهُمَا لَكُمْ مِّنْ إِلَكِهِ عَيْرُهُمْ وَإِللَهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَكِهِ عَيْرُهُمْ وَاللهُ عَرَافَ: ٥٥].
- ٥. أما إبراهيم عليه السلام فقد تحدّث القرآن بتفصيل وافر عن دعوته إلى النبوة، وتحدث القرآن عن دعوة إبراهيم بشتى الصيغ والأساليب، في المواقف المتعددة والأحوال المختلفة، ولعل السر في توسيع حديث القرآن عن إبراهيم عليه السلام أنه أبو الأنبياء الذين جاءوا بعده صلى وكان اليهود والنصارى والعرب يعترفون بنبوته وأبوته لهم، بل ويعتزون بالانتساب إلى إبراهيم عليه السلام، وبذلك تقوم الحجة على المنتسبين إليه جميعًا الذين انحرفوا عن دين الحق، ووقفوا في دروب من الوثنية الطامسة

⁽۱) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ١٠٣.

الدامسة، وبذلك تسقط دعواهم أنهم على دين إبراهيم، كما قال تعالى ردًا عليهم مجتمعين: ﴿ مَاكَانَ إِنَّوهِيمُ يَهُورِيًّا عليهم مجتمعين: ﴿ مَاكَانَ إِنَّوهِيمُ يَهُورِيًّا وَلَاَنْصَرَانِيًّا وَلَكِينَ كَانَ حَنِيفًا مُسَلِمًا وَمَاكَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٧]. ويقول تعالى عنه وعن المؤمنين معه: ﴿ قَدْ تَعالى عنه وعن المؤمنين معه: ﴿ قَدْ تَالَمُ أُسُوةً حَسَنَةً فِي إِنَّهِيمَ وَاللَّذِينَ مَعَهُ وَمِنَ الْمُؤْمِنِمُ إِنَّا بُرَء وَلَّا مِنكُمْ وَمِمَا نَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُرُ وَيَدَا يَبْنَاوَ بَيْنَاوَ بَيْنَكُمُ الْمَدَوةُ وَالْمِنْضَاءَ أَبْدًا حَقَى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ وَ المُعَدَة وَاللَّهِ وَحَدَهُ وَاللَّهِ وَحَدَهُ وَاللَّهِ وَحَدَهُ وَاللَّهِ وَمَعْدَهُ وَاللَّهِ وَحَدَهُ وَاللَّهِ وَحَدَهُ وَاللَّهِ وَحَدَهُ وَاللَّهِ وَحَدَهُ وَاللَّهِ وَحَدَهُ وَاللَّهِ وَحَدَهُ وَاللَّهُ وَحَدَهُ وَاللَّهُ وَحَدَهُ وَاللَّهُ وَحَدَهُ وَاللَّهُ وَمَا اللَّهُ وَحَدَهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَمَا اللَّهُ وَمَا اللَّهُ وَاللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَلَعْلَالُولُونَا إِلَّهُ وَمِنْ اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللْهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّالِهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَالْمُوالِمُ اللَّهُو

آ. وكذلك يقول القرآن الكريم عن موسى عليه السلام وهو يدعو إلى وحدانية الله: ﴿وَأَنَا آخَرَتُكَ فَأَسْتَمِعٌ لِمَا يُوحَى ﴿
 إِنِّنِى أَنَا اللهُ لَآ إِلَهُ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدُنِي ﴾ [طه: الله: ١٣ - ١٤].

٧. وكذلك يخبر القرآن عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَكِنِيَ إِلَّهُ مُ اللهُ مَلِيهِ أَلْمُ اللهُ مَلِيهِ أَلَّهُ مَلِيهِ أَلَّهُ مَلِيهِ أَلَّهُ مَلِيهِ أَلْمُ عَلَيْهِ ٱلْمُخَلِّمُ اللهُ عَلَيْهِ ٱلْمَخَلَّةُ مَن يُشْرِكُ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللهُ عَلَيْهِ ٱلْمَخَلَّةُ مَن يُشْرِكُ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللهُ عَلَيْهِ ٱلْمَخَلَّةُ وَمَا لِلظّللِمِينَ مِنْ وَمَأْوَدَهُ ٱللهُ عَلَيْهِ أَلْمُ عَلِيهِ أَلْمُ عَلَيْهِ أَلْمُ عَلِيهِ أَلْمُ عَلَيْهِ أَلْمُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ أَلْمُ عَلَيْهِ أَلِمُ عَلَيْهِ أَلْمُ عَلَيْهِ أَلْمُ عَلَيْهِ أَلْمُ عَلَيْهِ أَلْمُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ أَلْمُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ أَلْمُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهُ أَلْمُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهُ عَلَيْهُ عَلَيْهِ عَلَيْ

٨. ويخبر القرآن عن دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد، لقد بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة العالمية الشاملة، وبالتقرير الأوفى، وبالبيان

الأعلى في شأن الدين كله عامة، والتوحيد منه خاصة، وقد أمده القرآن الكريم بأتمّ الحجج والبراهين، وسجّل أقاويل الكفار وردود الوحى عليها؛ حتى تكون حجة الله بالغة باهرة إلى يوم الدين، وحتى لا تكون للناس على الله حجة بعد ختم النبوة؛ لأن القرآن صوتها الممدود ونداؤها الموصول، وفيه أكمل حديث عن التوحيد تقريرًا وإثباتًا، وردًّا على المشركين والملحدين، وإبطالًا للشرك وكل دروب الوثنية والانحراف عن التوحيد. ويكفى مثالًا لهذا ما أمره الله تعالى أن يقول للناس في كلمات جامعة: ﴿فَلَّ هُوَ اللهُ أَحَدُ اللهُ الفَّكَدُ اللهُ الفَّكَدُ اللهُ الفَّكَدُ اللهُ الفَّكَمَدُ اللهُ الفَّكَمَدُ الله كُمْ يَكُنْ وَكُمْ يُوكُدُ آلَ وَكُمْ يَكُنْ لَّهُ, كُفُواً أَحَدُ ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

فهذه السورة الكريمة على وجازتها جامعة لكل ما يليق بالله -تعالى وحده-، من صفات الكمال: أحدية، استغناء، تنزيه له عن الشركاء والأشباه، ثم هي مصححة لضلالات المشركين وأهل الكتاب في باب الاعتقاد (۱۱).

⁽۱) التفسير الموضوعي ج ۱، جامعة المدينة ص١٣-١٣.

الربوبية والألوهية حقيقتا التوحيد

التوحيد هو إفراد الله بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته جميعًا:

(التوحيد) يعني اتصاف الله تعالى بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات، و(التوحيد) يعني وجوب إفراده سبحانه وتعالى بالأمور الثلاثة، وهذه هي الحقيقة الشرعية للتوحيد: أن يؤمن العبد بأن الله تعالى هو وحده الرب، صاحب كل صفات التأثير والكمال، وأنه لذلك هو وحده الإله المستحق للعبادة والطاعة بلا شريك، وأنه لذلك هو الجدير وحده بالأسماء الحسنى والصفات العلا، فلا يصلح للمخلوق منها الأركان الثلاثة فقط لم يكن موحدًا، وإنما يقال: هو مقرِّ أو معترف بأحدها، ولكن لا يصح أن يسمى موحدًا؛ لأن التوحيد هو مجموعها معًا.

ولهذا لم يطلق القرآن على الكفار أنهم موحدون توحيد الربوبية، حين أقروا أن الله تعالى هو الخالق المالك الرازق، وإنما سماهم كفارًا مشركين.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُمُ مِنَ ٱلسَّمَآ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُمْرِجُ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُمْرِجُ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُمْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ ٱلْمَيْتِ وَمُن الْمَيْتِ مِنَ ٱلْمَيْتَ مِنَ ٱلْمَيْتِ وَمَن يُمْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ ٱلْمَيْقُونَ وَمَن يُمْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ ٱلْمَا مَنْ قُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا لَنَقُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا لَنَقُونَ اللَّهُ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا لَنَقُونَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمَا اللَّهُ الْمُنْ اللَّهُ الْمُعْلَى الْمُعْلَى اللَّهُ الْمُعْلَى اللَّهُ اللْمُعْلَى الْمُعْلِمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللْمُعْلَى الْمُعْلَى الْمُعْلَقُولَ الْمُعْلَى الْمُعْلَى الْمُعْلَمُ الْمُعْلَى الْمُعْلَى الْمُعْلَمُ الْمُعْلَى الْمُعْلَى الْمُعْلَمِيْلِيْمُ الْمُعْلَمُ الْمُعْلَمُ الْمُعْلَمُ الْمُعْلَى الْمُعْلَمُ الْمُعْلَمُ الْمُعْلَمُ ال

فَلَالِكُو اللهُ رَبِّكُو الْمَنْ أَلْمَقُ فَمَاذَا بَمَدَ الْحَقِ إِلَّا الضَّلَالُّ فَأَنَّ تَصْرَفُون شَّ كَذَالِكَ حَقَّتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى فَأَنَّ تَصْرَفُون شَّ قُلَ مَلْ مِن النَّين فَسَقُوا أَنَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ شَ قُلُ مَلْ مِن شُركا مِن شُركا مِن مُركا مِن مَن يَبْدَوُ الْمُلْفَق مُمْ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَحْبَدُونا اللهُ يَحْبُدُونا اللهُ يَحْبُدُونا اللهُ يَحْبُدُونا اللهُ يَحْبُدُونا اللهُ يَحْبُدُونا اللهُ يَعْبِدُونا اللهُ يَعْبِدُونا اللهُ يَعْبِدُونا اللهُ يَعْبِدُونا اللهُ يَعْبُدُونا اللهُ يَعْبُدُونا اللهُ يَعْبُدُونا اللهُ يَعْبُدُونا اللهُ يَعْبُدُونا اللهُ يَعْبُدُونا اللهُ اللهُ يَعْبُدُونا اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ يَعْبُدُونا اللهُ الل

لقد سماهم القرآن كفارًا مشركين؛ لأنهم لم يأتوا بحقيقة التوحيد الجامعة، وإنما أقروا بوصفٍ منها، والتوحيد لا يقبل التجزئة أصلًا، فمن أشرك في وصفٍ فقد أشرك في الكل؛ لأنه لم يأت بحقيقة مسمى التوحيد الشرعى الجامعة.

ولذلك يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشَرَكَ بِهِم وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءً ﴾ [النساء: ٤٨](١).

الربوبية والألوهية إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا:

ولأجل هذا الترابط الوثيق بين وصفي الربوبية والألوهية، وائتلافهما في تكوين حقيقة التوحيد، نجد أن القرآن الكريم قد استعمل كل لفظ مكان الآخر، أي: هناك تلازم بين الربوبية والألوهية، فإذا ذكر أحدهما دل على الآخر، باعتبارهما وصفين متفردين لذات واحدة، ولا يليق أحدهما إلا بالله، فإذا ذكر الرب فهم منه استلزامًا أنه المستحق للعبادة والطاعة وحده، وإذا ذكر

⁽١) المصدر السابق ص ١٧ - ١٨.

الإله فهم منه استلزامًا أنه الخالق الرازق المالك؛ لأنه لا يكون إلهًا حقًّا إلا بهذه الصفات.

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿أَمَّنَ خَلَقَ السَّمَاوَتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزُلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاوَ مَا مُ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَايِقَ ذَاتَ بَهْجَةِ مَا السَّمَاء فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَايِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُوْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَ أَولَكُ مُعَ اللّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يُعَدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠].

فالسؤال في أول الآية وقع عن أشياء تتصل بالخلق والرزق والقدرة والتدبير، وغيرها من صفات التأثير التي هي معنى لفظ الرب، فكان المقام يقتضي سؤالهم في آخر الآية عن ذلك، فيقال: أربّ مع الله؟!، لكن وقع السؤال بقوله: ﴿ وَاللَّهُ مَا اللَّهُ اللّهُ اللَّهُ اللَّالِي اللَّهُ اللللَّالِ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّالِ

الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية:

ويلاحظ أن استعمال كلمة (إله) هنا في الآية السابقة قد جاء لحكمة عظيمة؛ لأنه جل وعلا قد سألهم عن محل النزاع مباشرة، والمعنى: أربّ يخلق ويرزق مع الله فيستحق التأليه معه؟!، ولما كان الخلق والرزق والتدبير ليس محل نزاع كثير، وإنما النزاع في عبادة غير الله؛ لذلك عاجلهم

باستنكار اتخاذ آلهة مع الله تعالى (١). ونضرب مثلًا آخر بقوله تعالى: ﴿ آعَبُدُوا اللّهَ رَبِّي وَرَبِّكُم ۗ ﴾ [المائدة: ٧٣].

والمقام يقتضي أن يقول: اعبدوا الله الهي وإلهكم، لكن استعمل كلمة الرب مكان الإله؛ للتلازم التام بين الكلمتين. والحكمة هنا -والله أعلم- أن ذكر الرب فيه تصريح بعلة العبادة، وهو ما يتضمنه لفظ الرب من معاني الخلق والرزق... إلى آخره، والمعنى: اعبدوا الله الذي خلقكم ورزقكم وتولاكم في سائر أموركم.

بل ما رأيك أنّ هذا الرّبط بين العبادة وعلّتها -وهي الربوبية وما تتضمّنه من المعاني- قد نطق به أول أمر في القرآن الكريم!!

وهو قول الله تعالى: ﴿ يَثَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمُ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمُ الْمَرْضَ لَمَكُمُ تَتَّقُونَ ﴿ اللَّهِ اللَّذِي جَمَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ لَمَلَّكُمُ مَنَّقُونَ ﴿ اللَّهِ اللَّهِ مَلَا اللَّهُ اللَّالَّةُ اللَّهُ اللَّا اللَّهُ اللَّهُ الللَّا اللَّهُ اللَّالَا اللَّالَّا اللَّهُ اللَّا اللَّهُ اللَّا اللَّهُ

فتأمل هاتين الآيتين العجيبتين في نظمهما، كيف أنّ الله تبارك وتعالى ذكر في البداية: الأمر بعبادته، وفي النهاية: النهي عن اتخاذ الأنداد والشركاء مع الله، وما بين البداية والنهاية: التعليل الصريح لذلك

⁽١) المصدر السابق ص ٢٣.

بتفرده تعالى خلقًا ورزقًا وتدبيرًا للكون.

ولنتأمل أخيرًا في سورة الناس، وكيف جاءت الاستعادة فيها بالأسماء الحسنى الثلاثة: الربّ، والملك، والإله، مبيّنة هذا التناسق والتواثق بين الربوبية والألوهية، فإنه لما قال: ﴿قُلِّ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم، فبقي أن يقال: لمّا خلقهم هل كلّفهم وأمرهم ونهاهم؟ قيل: نعم، فجاء: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ قيل: نعم، فجاء: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ فأثبت الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلأَمْنُ ﴾ فألبت الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلأَمْنُ ﴾ فالأعراف: ٤٥].

فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان ربًّا موجدًا، وملكًا مكلفًا، فهل يحب ويرغب إليه، ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر؟ قيل: ﴿ إِلْكِ النَّاسِ ﴾ أي: مألوههم ومحبوبهم، الذي لا يتوجه العبد المخلوق المكلف العابد إلا له، فجاءت الإلهية خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها (١).

أساليب القرآن في الدعوة للتوحيد

جاءت أساليب القرآن في الدعوة إلى التوحيد على غاية التفنن والإبداع؛ تلطفًا في استدعاء الناس إلى التوحيد، وتأليفًا لقلوبهم، ولفتًا لأسماعهم وأبصارهم، وإقامة للحجة عليهم بكل الأساليب، ولا شكّ أن في هذا التنويع والتفنّن ظهورًا فائقًا للسمو البلاغي والبياني للقرآن الكريم.

وتقريبًا للوقوف على شيء من هذه الأساليب القرآنية الرفيعة نقسّمها إلى ما يلى:

أولًا: أسلوب الخبر المجرّد:

في كثير من الآيات القرآنية يقرر الله تبارك وتعالى حقائق التوحيد بأسلوب الخبر المجرد، تقريرًا سهلًا مباشرًا، ليس معزّرًا بالتوكيدات، ولا مشفوعًا بالمحاورات والتشبيهات، وكأنّ الحقّ تبارك وتعالى يلقي هذه الحقائق الإيمانية والأصول التوحيدية إلى الفطرة النقية السويّة، التي لا تعرف المكابرة ولا الالتواء، أو كأن القرآن الكريم يعرّض بأولئك المشركين المعاندين، ويقول لهم بمفهوم الكلام دون منطوقه: إن حقائق التوحيد لهي أوضح من الشمس، كيف لا والدلائل عليها تحاصركم من كل جانب فطرة وحسًا وعقلًا وشرعًا؟! فجدير جانب فطرة وحسًا وعقلًا وشرعًا؟! فجدير إذا أن ينزّل أولئك المعاندين المكابرين المكابرين المكابرين

⁽۱) تجريد التوحيد المفيد، المقريزي ص ٩.



منزلة الخالين من العناد والمكابرة؛ فيلقى إليهم الكلام أيضًا خبرًا مجردًا؛ لأن معهم من الأدلّة ما يقطع كلّ شكّ، ويستدعي كل يقين.

والآيات التي نستطيع بها التمثيل لهذا الأسلوب كثيرة، وتكفينا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ الْحَنْدُ يَدِّ نَبِ الْمَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِلَاهُكُو إِلَهُ وَحِدُّ لَا إِلَهُ إِلَهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِي اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ المِلْمُولِيَِّ

وقوله تعالى: ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِ شَيْءً وَهُوَ عَلَىٰ كُلِ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿ لَهُ اللَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تُوالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايِئتِ اللّهِ أُولَتَهِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٢- ٢٣].

ثانيًا: أسلوب الخبر المؤكد:

من أساليب القرآن الكريم (التوكيد)، وهو أسلوبٌ قيمته البلاغية في تقوية الكلام ابتداء، وإضفاء مزيدٍ من الصرامة في تقريره وإثباته؛ ليكون أدعى لقبول السامع واقتناعه، أو في مجابهة المتلقّي الجاحد المنكر بما يليق بحاله من مضادّةٍ له ومدافعة، والمؤكدات التي جاء بها القرآن الكريم في شأن الوحدانية والتوحيد كثيرة ومتنوعة؛ ومنها:

١. التأكيد بـ(إنّ).

٢. التأكيد باللام (لام التقوية).

٣. التأكيد بالقسم.

ومثالها جميعًا قوله تعالى: ﴿وَالصَّنَفَاتِ صَفًا ۞ فَالرَّمِرَتِ رَحْرًا ۞ فَالتَّلِيَتِ ذِكْرًا ۞ إِنَّ إِلَنهَكُمْ لَوَمِدُ ۞ رَبُّ السَّمَوَتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُ ٱلْمَشْرِقِ ﴾ [الصافات: ١ - ٥].

٤. التأكيد بأساليب القصر.

كأسلوب النفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَيْمِكَةَ بِالرُّوجِ مِنْ آمْرِهِ. عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ: أَنْ أَنْذِرُواً أَنَّهُ. لَآ إِلَنَهُ إِلَّا أَنَا فَأَتَّقُونِ اللهِ إِلَّا أَنَا فَا أَنَّا لَهُ فَا لَقَوْنِ اللهِ إِلَى اللهِ إِلَى اللهِ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ

وأسلوب القصر بـ(إنما): ﴿ قُلُ إِنَّمَا مُو إِنَّهُ وَمِدُ وَالِنَيْ بَرِئَةً مِّنَا تُشْرِكُونَ ﴿ اللَّهُ ﴾ [الأنعام:١٩].

وأسلوب القصر بالتقديم والتأخير، مثل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ مَبْتُهُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيثُ ۞﴾ [الفاتحة:٥].

فتقديم المفعول (إياك) أفاد قصر العبادة على الله وحده، وأصل الجملة: نعبدك.

وكذلك أيضًا أسلوب القصر بتعريف طرفي الجملة: ﴿ وَمَا الْخَنْلَفَتُمُ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكُمُهُ وَإِلَى النَّهِ أَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّمُهُ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَمْ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّمْ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّمْ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّمْ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَمْ اللَّهُ اللَّلِمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُنْ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللْمُنْ الْمُنْعُلُولُولُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ

فتعريف الخبر (ربّي) أفاد أنه مقصور على الله على المبتدأ، أي: الربوبية مقصورة على الله تعالى(١).

⁽١) انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١/ ٤٧٧.

ثالثًا: الأساليب الإنشائية:

من أساليب القرآن الكريم أيضًا في تقرير التوحيد: أسلوب الطلب، كالاستفهام التقريري أو الإنكاري، فهذا أسلوب قرآني عالي في نقاش المشركين، إنه يوالي عليهم الأسئلة ويترك لهم في كثير من الأحيان إجاباتها؛ ليصلوا إلى الحق بأنفسهم، ويلزمهم الحجة، ويقودهم إلى الصواب.

قال تعالى: ﴿ أَوِلَكُ مِنْ اللَّهِ تَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُثْمِرِكُونَ ﴾ [النمل: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْمُ اللَّتَ وَالْمُزَى اللَّهِ وَمَنَوْهَ النَّالِثَةَ الْأَخْرَىٰ اللَّهُ اللَّكُمُ الذَّكُرُ وَلَهُ الْأَنْنَى اللَّهُ النَّالِيَةَ الْأَخْرَىٰ اللَّهُ اللَّكُمُ الذَّكُرُ وَلَهُ الْأَنْنَى اللَّهُ اللْمُلْمُ اللَّهُ اللْمُعْلِمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللّهُ الللْمُوالِمُ اللّهُ اللْمُوالِمُ الللْمُوالِمُ الللْمُولِمُ ا

والمعنى: أن هذه التي تسمونها آلهة ليس لها من حقيقة الألوهية أدنى نصيب، وإنما هي أسماء على غير حقائق، كالغول والعنقاء وغيرهما من الأشياء المتوهمة.

ولذلك يقول القرآن الكريم متحديًا المشركين: ﴿ أَفَكَنْ هُوَ فَآيِدُ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتُ وَجَعَلُواْ يَلَهِ شُرَكآ ءَ قُلْ سَعُوهُمَّ أَمْ تُنَيِّعُونَهُ وَكَسَبَتُ وَجَعَلُواْ يَلَهِ شُرَكآ ءَ قُلْ سَعُوهُمَّ أَمْ تُنَيِّعُونَهُ وَسَبَدُواْ مَكُرُهُمْ وَصُدُواْ عَنِ ٱلقَولُ بَلْ ذَيْنَ لِلّذِينَ كَفُرُواْ مَكُرُهُمْ وَصُدُواْ عَنِ ٱلسَّبِيلُ ﴾ ذُينَ لِلّذِينَ كَفُرُواْ مَكُرُهُمْ وَصُدُواْ عَنِ ٱلسَّبِيلُ ﴾ [الرعد: ٣٣].

والمعنى: أن الله تعالى رقيب وعليم بكل شيء، وقد جعل له المشركون شركاء لا حقيقة لهم، وإنما عبدوها بظنون من القول وأوهام من الفكر باطلة.

ويقول تعالى منددًا بالمشركين، الذين يعبدون الأوهام المطلقة، تحت هذه الأسماء المخترعة: ﴿ وَيَصَّبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِمَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَكُولُونَ مِن دُونِ اللّهِمَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَتَوُلاَهِ شُفَعَتُونًا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنبِعُونَ اللّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السّمَونِ وَلَا فِي الْأَرْضِ شُبّحننهُ. وَتَعَلَى عَمَا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

ومن ذلك أيضًا: الأسلوب التلقيني، في فيستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب في تلقين الجواب الظاهر، حيث إنه لوضوحه لا ينكره المشركون، بل يسلمون به، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُتَجِّيكُمُ مِن ظُلُمُتَ اللّهِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونُهُ تَضَرُّعًا وَخُفَيَهُ لَإِن اللّهُ اللهُ ال

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّضَذْتُم مِن دُونِهِ الْوَلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا مَنَّزًا ﴾[الرعد: ١٦].

وفي ذات الآية: ﴿قُلِ ٱللّهُ خَلِقُ كُلِ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَحِدُ ٱلْقَهَارُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلُ مَن يَرْزُقُكُمُ مِّرَ السَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ اللّهُ ﴾ [سبأ: ٢٤]. ففي هذه الآيات: يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسألهم عمن ينجيهم من المخاطر، ومن رب السماوات والأرض، ومن يرزقهم، ويأمره بأن يجيب: «الله»؛ لاعترافهم أن آلهتهم لا تملك شيئًا من ذلك، وتلقينهم الجواب فيه إشارة إلى أنهم لا ينكرون ذلك، وليس عندهم جواب غيره، وأن سكوتهم عن الجواب لوضوحه فيه حجة عليهم؛ إذ إنهم ما داموا قد اعترفوا بأن فاعل ذلك هو الله، فلم يشركون به غيره؟ ومثل هذا الأسلوب يعجز الخلق كلهم عن الإتيان بمثله.

ومما يلتحق بهذا الأسلوب التلقيني: الجواب المباشر من الله تعالى على ألسنة خلقه من الملائكة أو الأنبياء وهم يدفعون عنهم دعاوى الألوهية والبنوة لله، فليسوا سوى عباد مكرمين، خاضعين لأمره، ولن يجرؤ واحد منهم على ادعاء الألوهية، أما من تجرأ منهم على تلك الدعوى؛ فجزاؤه جهنم؛ لأنه ظالم مبين، وهل هناك أقوى في هدم الدعوى من اعتراف هؤلاء العباد في هدم الذين يدعونهم أبناء، بأنهم ليسوا سوى عبيد خاضعين، ومن جرأة منهم على دعوى الألوهية، كان جزاؤه عذاب جهنم خالدا فيها.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ الْقَنَدُ الرَّمْنُ وَلَدُاً شَبْحَنَهُ مَ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْفَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَصْمَلُونَ

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ وَمَن يَقُلُ مِنْهُمْ إِلِّتِ إِلَّهُ مِّنْ دُونِهِ وَهَنَ يَقُلُ مِنْهُمْ إِلِّتِ إِلَّهُ مِّن دُونِهِ وَهَمَ مَنْهُمُ كَذَيْكِ خَيْرِي مِن دُونِهِ وَهَمَ مَنْهُمُ كَذَيْكِ خَيْرِي مِن كُونِي وَهِمَ مَنْهُمُ كَذَيْكِ كَنَيْلِكَ خَيْرِي وَهِمَ مَن كُلُولُكَ خَيْرِي وَهِمَ مَنْهُمُ كَذَيْلِكَ خَيْرِي وَهِمَ مَن كُلُولُكَ خَيْرِي وَهِمَ مَنْهُمُ كَذَيْلِكَ خَيْرِي وَهِمَ مَنْهُمُ كَذَيْلِكَ خَيْرِي وَهُمْ مَنْ يَقُلُ مِنْهُمْ إِلَيْهِ عَلَيْمِ مَنْهُمْ إِلَيْنَ إِلَيْهِ عَلَيْمِ مَنْ مُنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ وَلِي اللّهُ مِن مُنْهُمْ مِنْهُمْ إِلَيْنَ إِلَيْهِ مِنْهِمُ مِنْهُمْ مِنْهِمُ مَنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهِمُ مِنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهِمُ مِنْهُمْ مِنْهِمُ مِنْهُمْ مِيْهِمْ مِنْهُمْ مُنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مِنْهُمْ مُنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مِنْهِمْ مُنْهُمْ مُنْهِمُ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مِنْهُمْ مُنْهِمُ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مِنْهُمْ مُنْهُمْ وَنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهِمْ مِنْهُمْ مُنْهِمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهِمُ مُنْهِمْ مِنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهِمُ مُنْ مُنْهِمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهِمُ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمُ مُنْهُمْ مُنْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُوالْمُعُمُ مُنْهُمُ مُنْهُمُ مُنْ مُنْهُمُ مُنْهُم

وعلى هذا النسق نفسه جرى في الردعلى من زعم ألوهية المسيح، فقد جعل المسيح نفسه يتبرأ من ذلك وينفيه، إذ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَكِعِيسَى ابَنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ النِّفَدُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَننَكَ مَا وَأُمِي إِلَيْهَ قَالَ سُبْحَننَكَ مَا يَكُونُ إِنَّ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي يِحَقِّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدَ عِلْمَتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي مَا قُلْتُ مَا أَمْرَتَنِي بِهِ عِلَى أَلْمَا أَمْرَتَنِي بِهِ عَلَى اللّهُ مَنْ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي اللّهُ مَا أَمْرَتَنِي بِهِ عِلَى أَنْ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي اللّهُ وَلَيْ مَا أَمْرَتَنِي بِهِ عِلَى أَنْ أَعْلَمُ مُنْ فَي وَسَعِيمُ هُو إِلْمَالًا وَلَمْ مَا فِي الْمَالِ وَلَا الْمَالِدَةُ عَلَى اللّهُ الْمَالِقَ الْمَالِ وَالْمَالَةِ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِةِ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِةُ وَلَا الْمَالِيةِ وَالْمَالِهُ وَالْمِلْهُ وَلَا اللّهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَالْمُ الْمَالِهُ وَلْمَا أَلْمُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ الْمُعْلِقُ وَلَا اللّهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَلَمُ اللّهُ وَلَوْلُكُولُولُهُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَلَعْلَمُ وَالْمَالِهُ وَالْمَالِهُ وَلَوْلُكُولُ مِنْ الْمُولِقُولُهُ مِنْ اللّهُ وَلِمُ اللّهُ وَلَمْ الْمُولِقُولُهُ مِلْمُ الْمُولُولُولُولُولُولُهُ الْمُعْلَمُ وَالْمُعِلَمُ الْمُعْلَمُ وَالِ

رابعًا: أسلوب ضرب المثل:

كذلك أسلوب الأمثال، وهو باب واسع في القرآن الكريم، يقصد به تقرير المعاني في نفس السامع، وتصويرها في صورة محسوسة ملموسة، عن طريق التشبيه أو الاستعارة أو غيرهما من أساليب البيان، ولقد مدح الله جل وعلا كتابه باشتماله على

⁽۱) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٣٤٩، من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٧.

أسلوب الأمثال فقال: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَيْنَ اللَّهَ السَّاسِ فِي هَذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِيكَ اللَّهِ أَوْلِيكَ آءَ كَمَثَلِ اللَّهِ أَوْلِيكَ مَكَلُ الَّذِيكَ اللَّهَ الْمَلَى اللَّهَ الْمَلْكَ مَكَلًا الْمَنكَبُوتِ النَّفَ ذَتْ يَبْتُأْ وَإِنَّ أَوْمَن الْمَنْكِبُوتِ لَيْ أَوْمَن الْمَنْكِبُوتِ لَوْ كَانُوا يَمْلُمُون الْمَنْدِرُ الْمَحْوِيك مِن مُونِيه مِن مُونِيه مِن مُونِيه وَهُو الْمَنزِرُ الْمَحْوِيك مِن دُونِيه مِن مُونِي وَهُو الْمَنزِرُ الْمَحْوِيكُم دُونِيه مِن مُونِي وَهُو الْمَنزِرُ الْمَحْوِيكُم الْمُنْكُلُ نَصْرِبُها لِلنَّاسِ وَمَا يَعْمَلُهُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢١ - يَعْقِلُها إِلَّا الْمُعْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢١ - ٢٤].

فقد ضرب الله تعالى مثلًا للذين يستنصرون بآلهة غير الله، صوّرهم فيه بأنهم يستنصرون بأضعف شيء، وكأنهم العنكبوت في بيتها الهش الذي تمزقه الريح، وتقتحمه الحشرات، ويعبث به الصبيان، فلا يغنى عن أهله شيئًا.

وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلَا رَّجُلَا فِيهِ شُرَّكَا أَهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَّكَا أَهُ مُتَشَكِسُونَ وَرَجُلَا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلَ يَسْتَونِكِنِ مَثَلًا ٱلْحَمَّدُ لِلَّهِ بَلُ ٱكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يَسْتَونِكِنِ مَثَلًا ٱلْحَمَّدُ لِلَّهِ بَلُ ٱكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذان مثلان للمشرك في تخبطه وحيرته، وللموحد في راحته وسلامته، ولا يستويان أبدًا، كما لا يستوي عبد مملوك يسومه سادته لسوء أخلاقهم سوء العذاب، وعبد مملوك لمالكِ واحدِ لطيفِ لا يشق

عليه بكثرة الأوامر، واختلاف المذاهب والمشارب.

ويضرب الله الأمثال مبينا ضياع أعمال المشركين، وهو بهذه التشبيهات البليغة يدعوهم إلى التفكّر في العاقبة الخاسرة لأعمالهم -مهما كانت صالحة- ما دامت غير نابعةٍ من إيمانهم وتوحيدهم لله.

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهِ مَنْ كَفُرُواْ أَعْمَلُهُمْ كَمَرُكِمِ

هِيعَةِ يَحْسَبُهُ وَاللّهُ سَرِيعُ حَقَّ إِذَا جَاءَهُ وَاللّهُ سَرِيعُ حَقَّ إِذَا جَاءَهُ وَاللّهُ سَرِيعُ مَقَّ إِذَا جَاءَهُ وَاللّهُ سَرِيعُ شَيْعُ اللّهُ عَلَيْهُ وَاللّهُ سَرِيعُ اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَيْهُ وَاللّهُ سَرِيعُ اللّهُ عَنْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَا اللّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَا اللّهُ عَلَا اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَا اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَا اللّهُ عَلَا اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَا اللّهُ عَلَا

وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَيِهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ الشَّتَدَّتْ بِهِ الرَّبِحُ فِي

يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءً

ذَالِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ [براهيم: ١٨].

ويضرب الله المثل بالمشركين أنفسهم، وما يعانونه من اضطراب العقيدة وفساد التصور، وما ينشأ عن ذلك من حيرة القلب، وقلق الضمير.

يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُورَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَهْدَ إِذْ هَدَنَا اللهُ كَأَلَّذِى اَسْتَهُوتَهُ الشَّينطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ وَأَصْحَبُ يَدْعُونَهُ وَ إِلَى الْهُدَى اثْتِيناً قُلْ

إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىُ وَأُمِرَنَا لِنُسَلِمَ لِرَبِّ الْمُسَلِمَ (٧).

وحينًا يصوّرهم هلكى في أشد صور الهلاك وأفتكها، إذ يقول: ﴿وَمَن يُشْرِكُ بِاللّهِ فَكَأَنَّمَا خَرّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرّبِحُ فِي مَكَانِ سَجِيقٍ ﴿ [الحج: ٣١].

وضرب الله سبحانه وتعالى مثلًا لقلب المؤمن الموحد بالبلد الطيب، ومثلًا لقلب المشرك الكافر الذي لا ينبت فيه توحيد ولا إيمان بالبلد الخبيث، فقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ الْطَيِّبُ يَغَرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذِنِ رَبِّهِ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَغَرُجُ إِلَّا نَكِدًا حَكَذَاك نُصَرِفُ ٱلْآينَ لِقَوْمِ يَغَرُجُ إِلَّا نَكِدًا حَكَذَاك نُصَرِفُ ٱلْآينَ لِقَوْمِ يَنْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٨](١).

خامسًا: أسلوب المحاورة:

كذلك استخدم القرآن أيضًا أسلوب المحاورة، وهو الذي يورد فيه الحديث عن التوحيد من خلال حوار يجري بين طرفين أو أكثر؛ فيتقرر في النفس أكثر من الخبر المجرد، والمحاورات في القرآن كثيرةً، كمحاورات سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر.

قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي ٱلْكِنْبِ إِبْرَهِيمَ إِنَّهُ، كَانَ صِدِيقًا نَبِينًا ﴿ اللهِ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَنَا آبَتِ لِمَ تَعَبُّدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا ﴾ [مريم:

13- 27] إلى آخر الآيات المتضمنة لهذه المحاورة.

فالآيات الكريمة تورد حوارًا بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه المشرك، فيسأل إبراهيم أباه: لم تعبد آلهة صماء عمياء لا تغني عنك شيئًا؟! هو سؤال يبين حقيقة هذه الألهة الباطلة، ويتضمن صفات الله وحده بالعبادة، فهو السميع البصير الغني المغني عز وجل(٢).

وكتلك المحاورة بين الرجلين المؤمن والكافر: ﴿وَدَخَلَ جَنْتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَالْكَافر: ﴿وَدَخَلَ جَنْتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَالْكَافر: ﴿ وَمَا أَظُنُ اللَّهَ اللَّهُ وَكَا أَظُنُ اللَّهُ وَهُوَ اللَّهَ مَا عَلَيْهِ أَبِيدَ رُودتُ إِلَّى رَقِي لَأَجِدَنَ خَيْرُ مِنْهَا مُنقَلَبًا ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُو خَيْرُ مِنْهَا مُنقَلَبًا ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُو خُلُونُ وَلَا مَنْ اللَّهِ مَن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَة مُ سَوَيكَ رَجُلا ﴿ لَا لَكُهُ مَا لَكُ مُ اللَّهُ رَبِي وَلَا أَشْرِكُ بِرَقِي أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٣٥-٣٨].

ففي هذه المحاورة يصوّر الله جل وعلا مشهد الرجل الكافر بإزاء متجبّري قريش أو بني تميم، ومشهد الرجل المؤمن المقر بالربوبية الذي هو بإزاء بلال وعمار وصهيب وأقرانهم، وكيف أن الرجل المؤمن الذي خالطت قلبه بشاشة التوحيد؛ قد علم ما يجب عليه من شكر خالقه ورازقه.

وكتلك المحاورة الحادة يوم القيامة بين

⁽۱) انظر: من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ۲۰۰، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ۱۷۷.

⁽۲) التفسير الموضوعي ج ۱، جامعة المدينة ص ۲۷.

فئتين من أهل الضلال: بين الضعفاء الأتباع، وبين المتبوعين السادة، والمحاورة الأخرى بين الشيطان وأتباعه من الإنس، وهم في دركات الجحيم، ينبهنا الله تعالى سلفًا في قرآنه على بنود هذا الحوار بنوعيه؛ ليحذر العاقل، ويتجنب الانزلاق مع دعاة السوء.

وفي هذه الآية الكريمة يرسم الله جل وعلا للمشرك صورته المستقبلية، وهو في حالٍ من الحسرة والندامة، عندما يتبرأ منه الشيطان الذي اتبعه، ويقع بينهما التلاوم والشجار؛ لعله يتبصّر؛ فيختار لنفسه مصيرًا خيرًا من هذا المصير! (١).

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١١٩١.

سادسًا: أسلوب القصة:

كذلك أيضًا أسلوب القصة، وهو أسلوب من أوسع أساليب القرآن في التوحيد وغيره، وقد عني القرآن بهذا الأسلوب وأكثر منه؛ لما في القصة من تأثير في النفوس، وسهولة في الحفظ، وانتشار وذيوع بين الناس.

وقد قصّ الله جل وعلا في القرآن الكريم من قصص الأنبياء وأخبارهم، وما تعرضوا له في سبيل الدعوة إلى التوحيد من صعاب ومشاق، وفي ثنايا ذلك: قص علينا القرآن الكريم محاوراتهم ومجادلاتهم مع ذوي الكفر والعناد والتجبّر، وما أظهره الله على أيدي رسله من باهر المعجزات، وصادق الأدلة.

وقد ألمحنا إلى بعض هذه القصص فيما سبق، ونضيف هنا تذكيرًا بقصة أصحاب الأخدود، وقصة أولئك القوم الموحدين المؤمنين الذين لقوا الموت في سبيل عقيدة التوحيد، وقد خلّد الله ذكرهم بهذه الآيات الكريمات، ولعن الكافرين أصحاب تلك الفعلة الشنيعة، مبيّنًا مصير الفريقين.

قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَا اللهُ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿ وَالْيَوْمِ اللهُ وَمَشْهُودِ ﴿ فَيْلَ أَصَعَبُ الْمُؤْمِدُ ﴿ فَيْلَ أَصَعَبُ الْمُؤْمِدُ ﴿ فَيْلَ أَصَعَبُ الْمُؤْمِدُ ﴿ إِذْ اللهُ عَلَيْهَا لَعُمُودٌ ﴾ إذْ اللهُ عَلَيْهَا تُعُودٌ ﴾ وَمَا ثَعْمُوا مِنْهُمُ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْمَزِيزِ الْمُحْمِيدِ ﴾ نقَمُوا مِنْهُمُ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْمَزِيزِ الْمُحْمِيدِ ﴾

الَّذِي لَهُ مُلْكُ ثُمَّ لَدَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِ شَيْءِ شَهِيدُ الْ اللَّهِ مِنْ مَلِكُ ثُلِ اللَّهِ مِنْ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِ شَيْءِ شَهِيدُ اللَّهِ اللَّهِ مِنْ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ الللْمُنِهُ اللَّهُ الْ

لقد بين الله سبب قتلهم لهؤلاء المؤمنين وهو إيمانهم بالله العزيز الحميد، وعدم إيمانهم بالكفر والوثنية اليهودية وعقائدها المزيفة، والعبرة هنا موجهة بخاصة للكفار من أهل مكة، في هذه القصة القريبة العهد منهم، إما أن يكفوا عن إيذاء محمد وأصحابه المؤمنين الموحدين، ويدخلوا في دينه؛ فيكون لكم جنات تجري من تحتها الأنهار، وإما أن يستمروا على إيذائهم الموحدين من المؤمنين والسخرية بهم، كما صنع ذو نواس بالموحدين، فعندئذ يدخلون مع اليهود في اللعنة والغضب، والوعيد الشديد بعذاب جهنم وعذاب الحريق (۱).

الأدلة القرآنية على صحة التوحيد

لقد استوعب القرآن الكريم الاستدلال على صحة عقيدة الوحدانية، وأنها الحق المبين، وأن كل شريك أو معبود مع الله هو كذب وافتراء، بل كلها أصنام وأوهام لا حق فيها، بل لا حقيقة لها في باب الألوهية، ولم يترك القرآن الكريم دليلًا يصلح لخطاب البشر إلا أورده على أتم الوجوه؛ حتى لا نقول: إنه لم يسق الدليل على صحة الوحدانية أو وجوب التوحيد فقط، وإنما أوجب على الناس أن يتدبروا هذه الأدلة، وأن يفهموها ويحصلوها -ولو إجمالًا-؛ حتى يكونوا على بينة في أعظم حقائق الوجود، وحتى يكون إيمانهم على غاية الاستقرار؛ ولذلك نوع الأدلة في هذا تنويعًا عجيبًا؛ حتى تناسب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم(٢).

أولًا: الأدلة الوجدانية:

المقصود بالأدلة الوجدانية، أي: النفسية أو الداخلية، هي التي تعتمد في انتزاع الدليل على الوجدانية من داخل الإنسان، لا من خارجه، ومن أعماق شعوره الداخلي ووجدانه الباطني، لا من مدركات حواسه المعروفة.

⁽۲) التفسير الموضوعي ج ۱، جامعة المدينة ص ۲۸- ۲۹.

⁽۱) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٢٩.

وهذا الدليل بالغ الأهمية للإنسان، وفي قضية الإيمان بالذات؛ حتى يحاط به من خارجه ومن داخله جميعًا؛ فتمتلئ نفسه يقينًا لا يتسرب إليه ريب ولا قلق، وكم من إنسان امتلأ عقله بالمعارف والأرقام وفنون الإحصاء، وامتلأ عقله بعجائب هذا الكون، ولكنه يمضي متبلّد الإحساس، والسبب في ذلك تعطل وجدانه الداخلي، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَنَّعْمَى ٱلْأَبْصَدُرُ وَلَذِكِن تَعْمَى الْمُتُورِ ﴾ [الحج: ٢٤].

ومن هنا اهتم القرآن العظيم ببيان هذا الدليل النفسي، وساق الآيات؛ تذكيرًا للناس بهذا الجانب الفذ، الذي أهملوه وعطّلوه وطمروه تحت ركام من الشبهات والشهوات، التي رانت على قلوبهم؛ فأظلمتها وأماتتها.

ونجتزئ بهذه الإشارة إلى دليل الفطرة، فقد تقدّم له فيما سبق مزيد شرح واستفاضة. ثانيًا: الأدلة الكونية الحسية، والتذكير بنعم الله فيها:

آيات الله جل وعلا وعجائبه في خلقه كثيرة وعظيمة، وأنّى التفت الإنسان ببصره وجد دليل وحدانية الله تعالى ماثلًا أمامه، وإذا مني الإنسان لسببٍ أو آخر بجفاف الفطرة وضمورها، فلم يعد صوتها المنادي له بالتوحيد يصل إلى آذان قلبه، فإنّ القرآن

الكريم يرشد الإنسان إلى أدواتٍ أخرى قد تسعفه وتنقذه من ورطة الغيّ والضلال، لقد زوّد الله الإنسان بمداركه وقواه الحسّية من سمع وبصر وذوقٍ وشمِّ ولمس، حواسُّ يكتشف بها العالم من حوله، ويقف بها على عجائب مصنوعات الله، فلعلّ في ذلك ما يأخذ بناصيته إلى معارج التوحيد، ويرحم أقدامه من مواطئ الشّرك والكفران.

والقرآن الكريم إذ يذكّر الإنسان بهذه الأدلة الكونية الحسية على وحدانية الله تعالى، فإنه كثيرًا ما يسلك -من أجل هذا التذكير والتقرير - سبيل الامتنان بها كنعم وعطايا حبا الله الإنسان بها، فلولاها لم يكن لهذا الإنسان من وجود ولا ذكر، فهي إذًا آياتٌ كبرى تحيط بالإنسان، ونعمٌ عظيمةٌ تستوعب تفاصيل حياته، فكيف له بعد ذلك أن يعمى عن توحيد الله واستحقاقه للعبادة؟!.

وهذا المنهج القرآني لم نتفطّن إليه بالتأمل والتدبر، بل إن القرآن الكريم هو من يشرح بنفسه منهجه هذا، وتأمل في قوله تعالى: ﴿ وَهُو اللَّهِ عَلَمْكُ النَّالَ وَالنَّهَ ارْ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَكَر أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان:

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَهَ يَتُمُّ إِن جَمَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ عَلَيْكُ مَنْ إِلَكُ عَلَيْكُ اللهُ عَلَيْكُ اللهِ يَأْتِيكُمُ مَنْ إِلَكُ عَلَيْكُ اللهِ يَأْتِيكُمُ مِنْ إِلَكُ عَلَيْكُ اللهِ يَأْتِيكُمُ مِنْ اللهِ يَأْتِيكُمُ مِنْ اللهِ عَلْمَ اللهِ يَأْتِيكُمُ مِنْ اللهِ عَلْمَ اللهِ عَلْمَ اللهِ عَلْمَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهِ عَلْمَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهِ عَلَيْكُ اللهُ عَلَيْكُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الل

أَرَهَ يَشَمْ إِن جَعَكُ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَ السَّرَمَدُا إِلَى يَوْمِ الْقِهَارَ سَكَرَمُدًا إِلَى يَوْمِ الْقِينَمَةِ مَنْ إِلَىٰهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم لِللَّهِ مَنْ اللَّهُ عَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمُ وَمِن بِيدٍ أَفَلَا تُبْصِرُون اللَّ وَمِن مَن فَيْدِ وَلَيْهَ اللَّهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُمُوا فِيهِ وَلِيَبْنَعُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّمُ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: وَلِتَبْنَعُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّمُ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١-٧٧].

وقوله تعالى: ﴿اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ النّبَلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنّهَارَ مُبْصِرًا إِنَ اللّهَ لَدُو فَضَيْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَنكِنّ أَحْمُ رَالنّاسِ لَا يَشَكُرُونَ ﴿إِنَّ ذَلِيكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كَا يَكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ صَالِحَا اللّهُ اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ اللّ

إن الله جل وعلا يربط ربطًا أكيدًا في هذه الآيات بين توجيه النظر إلى التأمل في هذه الآيات الكبيرة، وبين الامتنان بما فيها من النعم العظيمة، وبين دلالتها المفترضة ونتيجتها المتوقعة في توحيد الناس العبادة لله وقيامهم بالشكر له، أو ليس في الليل السرمد والنهار السرمد ما يبعث الخوف في النفس، والحب لمن جعل الليل والنهار خلفة؟!(١).

ولذلك فقد قال تعالى في آية سورة القصص: ﴿وَلَمَلَكُمُ تَشُكُرُونَ﴾ أي: يرجى ويتوقع منكم أن تشكروا الله على مخالفته بين الليل والنهار؛ فتوحدوه وتعبدوه.

يقول الطبري: «أفلا ترون بأبصاركم

اختلاف الليل والنهار عليكم رحمة من الله بكم، وحجة منه عليكم؛ فتعلموا بذلك أن العبادة لا تصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره، ولمن له القدرة التي خالف بها بين ذلك... فعل ذلك بكم؛ لتفردوه بالشكر، وتخلصوا له الحمد؛ لأنه لم يشركه في إنعامه عليكم بذلك شريك؛ فلذلك ينبغي أن لا يكون له شريك في الحمد عليه»(٢).

وفي آية سورة غافر يقول تعالى بعد ذكر نعمته على الناس: ﴿ وَلَنكِنَّ أَكُمُ أَلْنَاسِ لَا يَمْ كُرُونِ كَالْنَاسِ لَا يَمْ أَلْلَهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كَالَّ الله عليهم والاعتراف بوحدانيته، الذي هو المقصود الأعظم من التذكير بالنعم؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمُ أَللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾؛ أي: الذي فعل هذه الأشياء وأنعم بها هو الله الواحد الأحد، الذي لا إله غيره ولا رب الواه، فكيف تعبدون الأصنام التي لا تنعم عليكم؟! (٣).

وما من مجالٍ هنا لاستقصاء جميع ما ورد في القرآن من الآيات الكونية، ولاكل ما ورد فيه من نعم امتن الله بها على الإنسان، وإنما الغرض هو التنبيه على الاستدلال بهذا النوع من الآيات والنعم، فنكتفي بما يدل

⁽١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٠٠.

⁽٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٦١٣.

⁽٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٣٦.

على المقصود.

الصورة الأولى: آيات الأرض والسماء والجبال.

إن الله جل وعلا ليضع الإنسان أمام حقيقة يسيرة ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَتِ وَٱلْأَرْضِ السَّمَاوَتِ وَٱلْأَرْضِ السَّمَانِ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْتُرُ السَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

بل إنه يسأله سؤالًا فيه إدلال بالتحدي:

إن كان الإنسان مغترًّا بخلقه اغترارًا؛ أغراه بالجحود والنكران لخالقه أن يشكره ويعبده، فهذه الآيات العظيمة في خلق الأرض والسماء تعرّف الإنسان بحجمه الحقيقي في هذا الكون، وتنبّهه إلى أن الذي خلقها وأبدعها ليس بعاجزٍ عن إحياء الموتى: ﴿أَوْلَمْ يَرُوّا أَنَّ اللهُ الَّذِي خَلَقَ الشَّمَوَنِ وَالْرُضَ وَلَمْ يَرُوا أَنَّ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَنِ وَالْرُضَ وَلَمْ يَعْيَ بِعَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَن المَّوْقُ بَلَنَ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرً ﴾ والأحقاف: ٣٣].

ومن كان هذا خلقه؛ فهو متعالى عن الشريك، كما قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَا وَاللَّهُ وَاللْلِمُ وَاللَّهُ وَاللَّالِمُولُولُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَال

فأنى يكون له شريك، وقد خلقهما بالحق وهو التوحيد، منفردًا بخلقهما وإبداعهما من غير حاجة لأحد؟!(١).

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد

قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ النَّاسُ اللَّمَ النَّيْ وَالسَّمَاءُ مِنَا النَّيْ وَالسَّمَاءُ مِنَا النَّيْ وَالسَّمَاءُ مِنَا النَّمَرُتِ مِنَا النَّمَرُتِ مِنَا النَّمَرُتِ مِنَا النَّمَرُتِ مِنَا النَّمَ مَنَا اللَّهُمُ مَنَا اللَّهُمُ مَنَا اللَّهُمُ مَنَا اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُمُ الللْمُوالِمُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُمُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّهُمُ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّ

قال ابن كثير: «وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده (Y).

وقال الزمخشري: «أي: هو الذي خصكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية؛ فلا تتخذوا له شركاء»(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَنَهُ كُرْ إِلَنَهُ وَحِدُّ لَآ إِلَهُ اللهُ وَاحِدُّ لَآ إِلَهُ وَاللهُ اللهِ وَاللهُ اللهُ اللهُ مِنَ اللهُ مِنَ اللهُ مِنَ اللهُ مِنَ اللهُ مِنَ اللهُ مِن اللهُ وَاللهُ مِن اللهُ مِن اللهُ وَاللهُ مِن اللهُ مِن اللهُ وَاللهُ وَال

قال الطبري: «وهذا تنبيه من الله تعالى ذكره أهل الشرك به على ضلالهم، ودعاءً منه لهم إلى الأوية من كفرهم والإنابة من شركهم، ثم عرّفهم تعالى ذكره بالآية ملكاوي ص١٥٣.

- (٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/١٩٧.
 - (٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٩٥.



التي تتلوها موضع استدلال ذوى الألباب منهم على حقيقة ما نبههم عليه من توحيده وحججه الواضحة القاطعة عذرهم، فقال تعالى ذكره: أيها المشركون، إن جهلتم أو شككتم في حقيقة ما أخبرتكم من الخبر من أن إلهكم إله واحد دون ما تدعون ألوهيته من الأنداد والأوثان؛ فتدبروا حججي وفكّروا فيها، فإن من حججي خلق السماوات والأرض»(١).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدُ مُكَّنَّكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْنِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠].

يقول الطبري: «ولقد وطّناكم أيها الناس في الأرض، وجعلناها لكم قرارًا تستقرون فيها، ومهادًا تمتهدونها، وفراشًا تفترشونها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشٌ ﴾ تعيشون بها أيام حياتكم من مطاعم ومشارب؛ نعمةً منى عليكم، وإحسانًا منى إليكم ﴿وَلِيلَامَّا تَشَكُّرُونَ ﴾ وأنتم قليل شكركم على هذه النعم التي أنعمتها عليكم؛ لعبادتكم غيري واتخاذكم إلهًا سواي، (٢).

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا شُبُلًا لَّمَلَكُمْ تَهُمَّدُونَ ﴾ [الزخرف: ١٠]. وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَـٰلَ لَكُمُ

ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَآمَشُوا فِي مَنَاكِهَا وَّكُلُوا مِن يِّزْقِهِ ۗ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَهَا فَيْعُمَ ٱلْمَنْهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَرْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَانًا ۞ أَخْيَاةً وَأَمْوَتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥ - ٢٦].

إن الله سبحانه وتعالى يذكّر عباده بنعمة الأرض التي جعلها لهم كالفراش ممهدة وموطأة ومستقرة، وهو الذي ذللها لنا؛ للاستفادة من خيراتها، ولولا تذليل الله لها ما استطعنا أن نشق فيها الطرق ولا البناء عليها ولا الحرث ولا سائر أنواع المنافع، والتى منها أن الأموات يكفتون في بطنها، فهي تكنّ الأحياء على ظهرها في المساكن والأموات في القبور، فكأنها كفتت أذى الناس أحياء، وجيفهم أمواتًا (٣٠).

وقال تعالى: ﴿وَأَلْفَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَسِي أَن نَمِيدَ بِكُمْ وَآتَهَا وَشُبُلًا لَعَلَكُمْ تَهْتَدُونَ اللَّ وَعَلَامَاتً وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٥ - ١٦].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَهُمْ يَهَنَّدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوْسِيَ شَايِخُلْتِ وَأَسْفَيْنَكُم مَّآءُ فُرَاتًا ﴾ [المرسلات: ٢٧].

⁽٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٣٨.

⁽۱) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٦٧.

⁽٢) المصدر السابق ١٢/ ٣١٥.

هذه نعمة عظيمة من الله تعالى على عباده، حيث ثبّت الأرض بالجبال؛ حتى لا تميد بأهلها وتضطرب فلا يستطيعون التصرف لمعاشهم؛ لعدم استقرارها.

والجبال كذلك علامات يستدل بها المسافرون برًّا وبحرًا إذا ضلوا الطريق؛ فإنها متنوعة الأشكال والألوان، وقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْحِبَالِ جُدَدًا بِيضٌ وَحُمَّرٌ مُّغْمَرَكُ مُّغْمَرَكُ مُّغْمَرًا مُعْمَرًا مِعْمَرًا مِعْمَرًا مُعْمَرًا مِعْمَرًا مِعْمَدًا مِعْمَرًا مُعْمَرًا مُعْمَرًا مُعْمَرًا مُعْمَرًا مِعْمَرًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَرًا مِعْمَرًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مُعْمَرًا مِعْمَالًا مِعْمَرًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مُعْمَدًا مُعْمَرًا مُعْمَرًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مُعْمَرًا مُعْمَرًا مِعْمَدًا مُعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مُعْمَرًا مِعْمَدًا مُعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَالًا مِعْمَدًا مُعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمُ مُعْمِعُ مُعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدُوعُ مُعْمَدًا مِعْمَدًا مُعْمَدًا مُعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مُعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مُعْمَدًا مُعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَدًا مُعْمَدًا مِعْمَدًا مِعْمَا مُعْمَاعِمُ مُعْمَدًا مِعْمَاعِمُ مُعْمَدًا مِعْمَاعِمُ مُعْمَدًا مِعْمَاعِمُ مُعْمَاعِمُ مُعْمِعُمُ مُعْمَاعِمُ مِعْمَاعِ مُعْمَاعِمُ مُعْمَاعِمً مِعْمَاعِمً مِعْمَاعِمًا مِعْمَاعِعِمُ مُعْمِعُمُ مِعْمَاعِمُ مُعْمَاعِمُ مُ

هذه الآيات الكبرى والنعم العظيمة في الأرض والجبال، توجب على العباد شكر المنعم وتوحيده وعبادته دون الآلهة والأوثان؛ لأنه هو الذي خلقهم، وخلق هذه النعم، فيكون هو وحده المستحق عليهم الطاعة والشكر والعبادة، وقد استعمل موسى عليه السلام هذا الدليل في الدعوة لتوحيد الله فقال لفرعون وقومه: ﴿اللَّهِي وَأَنزَلُ مِنَ السَّمَلَةِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَنَجاً مِن أَبُلُا وَأَرْعَوا أَنْعُمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَاَيْتِ مَنْ اللَّهُ فَيْها سُبُلًا شَقَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللّهُ اللّ

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أي: لدلالات وحججًا وبراهين لأولي النهى، أي: لذوي العقول السليمة على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه»(٢).

الصورة الثانية: آيات الشمس والقمر والليل والنهار.

ويحدثنا القرآن الكريم أيضًا عن نعمة تبادل الليل والنهار، وعما خلق له الليل من نعمة الهدوء والسكون، وعن الشمس والقمر يجريان في دقة ونظام؛ فيحسب الناس بهما حياتهم، وينظمون أعمالهم، وعن النجوم في السماء تزينها كمصابيح، ويهتدي بها السائر في ظلمات البر والبحر. قال تعالى: ﴿هُوَ اللّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيالَةُ وَالْقَمَرُ ثُورًا وَقَدَّرُهُ مَنَازِلَ لِنَعَلَمُوا عَدُدَ السِّينِ وَالْحِسَابُ مَا عَلَقَ اللّهُ وَاللّهَ وَالْمَعَلَى اللّهِ وَالبَعْرِ. اللّهِ وَالبَعْرِ. اللّهِ وَالبَعْرِ. اللّهِ وَالبَعْرِ. اللّهِ وَالْمَعْمَرُ وُرًا وَقَدَّرُهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدُدَ السِّينِ وَالْمَعْمَرُ وُرًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدُدَ السِّينَ وَالْمَعْمَرِ وَالْمَعْمَونَ وَالْلّرَضِ اللّهُ وَالنّهَ إِلَيْ فِي السَّمَوْتِ وَالْلّأَرْضِ النّهُ وَالنّهَ إِلَيْ فِي السَّمَوْتِ وَالْلّأَرْضِ النّهُ لِي وَالنّهَ إِلَيْ فَي السَّمَوْتِ وَالْلّأَرْضِ النّهُ وَالنّهَ إِلَيْ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّمَاتِ وَالْلَاثِ وَاللّهُ وَاللّهُ

في هاتين الآيتين تنبية على أن الله وحده هو الذي خلق الشمس والقمر والليل والنهار بغير معين ولا شريك، والمتدبر لذلك يعلم حقيقة الوحدانية، قال الطبري: «لقوم يعلمون إذا تدبروها حقيقة وحدانية الله، وصحة ما يدعوهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم، من خلع الأنداد، والبراءة من الأوثان»(").

وانظر هذا التقدير الحكيم بأن جعل الله الليل والنهار مرتبطين بدورة الشمس، فلا يستطيع أحد إيقاف الشمس عن دورتها، أو

⁽١) المصدر السابق ص ٢٣٩.

⁽٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٩٩.

⁽٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٤.

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: «فعلت هذا الفعل من إيلاجي الليل في النهار، وإيلاجي النهار في الليل؛ لأني أنا الحق الذي لا مثل لي، ولا شريك، ولا ند، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلها من دونه هو الباطل الذي لا يقدر صنعة شيء، بل هو المصنوع»(١).

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَنتِهِ ٱلَّيْتُ وَٱلنَّهَارُ وَالنَّهَارُ وَالنَّهَارُ وَالنَّهَارُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَلَا مَنْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلشَّمْسِ وَالشَّمْرِ وَاسْجُدُوا لِللّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَ إِن كَنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

يقول ابن كثير: «يقول تعالى منبها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء قدير: ﴿ وَمِنْ نظير له، وأنه على ما يشاء قدير: ﴿ وَمِنْ مَا يَكِيْمِهُ اللَّهِ مَا لَيْكَمُ اللَّهُ مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ وَاللَّهُ مَا اللَّهُ وَاللَّهُ مَا اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَا وَاللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَا اللَّهُ اللَّهُ والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه، واختلاف سيره في سمائه؛ ليعرف فلكه، واختلاف سيره في سمائه؛ ليعرف

باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لمّا كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي؛ نبّه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال: ولا تسبحُدُوا لِلشَّمِّ مِن وَاسَحُدُوا لِلشَّمِ اللَّهِ مَن وَاسَحُدُوا لِللَّهَ مَن وَاسَحُدُوا لِللَّهُ مَن وَاسَحُدُوا لِللَّهُ مَن اللَّهُ مَن اللَّهُ عَلَيْدَهُ لَا يَعْفَر أَن يشرك أَن يشرك اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّ

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الْظِلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿ ثُمَّ قَبَضْ نَدُ إِلَيْسَنَا قَبْضَنَا يَسِيرًا ﴾ والفرقان: ٤٥ - ٤٦].

فهذه نعمة أخرى تتعلق بنعمة الشمس، وهي نعمة الظل، وقد نبه سبحانه وتعالى عباده لهذه النعمة؛ لما فيها من الفوائد للكائنات جميعها؛ مما يستوجب على الناس الشكر للمنعم؛ لأنه لو شاء سكون الظل وعدم تحوله لفعل، ولما استطاع أحد تحويله.

كما نبّه على ما تتم به فائدة الظل هو قبضه تدريجيًّا، ولولا ذلك لم ينتفع به أهله؛ لأن في مدِّه وتحوله من مكان إلى مكان، ثم

⁽٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٨٢.

⁽۱) المصدر السابق ۱۸/ ۲۷۲.

قبضه شيئًا فشيئًا من المصالح والمنافع مما لا يحصى، وبسكونه دائمًا أو قبضه دفعة واحدة تتعطل المرافق والمصالح(١).

وقال تعالى عن النجوم: ﴿ وَبِالنَّجْمِ مُمْ يَهْ تَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦].

وأقسم به: ﴿وَأَلنَّجْرِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١]. وتمدح الله جل وعلا فقال: ﴿وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٩].

ولقّبها بمصابيح السماء وبروجها: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَكَهَا لِلنَّنْظِرِينَ ۞ وَحَفِظْنَكَهَا مِن كُلِّ شَيْطَنِي رَجِيعٍ ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٧].

﴿ وَلَقَدُ زَيَّنَا السَّمَاةَ الدُّنْيَا بِمَصَلِيحَ وَجَعَلْنَهَا رُحُومًا لِلشَّيَطِينَ ﴾ [الملك: ٥].

وأقسم بها: ﴿وَالسَّمَلَهِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ [البروج: ١].

وأقسم بأحد نجومها واستعجب منه: ﴿ وَالسَّمْهِ وَالسَّمْهِ وَالطَّارِقِ اللَّهِ النَّجُمُ الطَّارِقِ اللَّهِ النَّجُمُ الطَّارِقِ السَّارِقِ السَّالِقِ السَّارِقِ السَّالِقِ السَّارِقِ السَّارِقِ السَّارِقِ السَّالِقِ السَّالِقِي ال

أليس في هذه النجوم -وأصغرها قد يفوق شمس الدنيا حجمًا بمرات ومرات- ما يدعو إلى توحيد الله؟!.

(۱) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٣٤.

لقد أفحم القرآن بهذه الآيات المربوبة المسخّرة من ادّعى الألوهية من البشر إفحامًا لا مخلص له منه، وذلك في الحديث الذي دار بين إبراهيم وهذا الملك، الذي ادعى أنه إله، إذ يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى اللَّذِي حَلَجٌ إِبْرَهِمُ مَنِي فَي رَبِّهِ أَلْهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَهِمُ مَنِي اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَهِمُ مَنِي اللَّهِ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَهِمُ مَنِي اللّهِ اللّهُ المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَهِمُ مَنِي اللّهِ اللّهُ المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَهِمُ مَنِي اللّهِ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ

الصورة الثالثة: آيات ونعم الرياح والسحاب والمطر والنبات.

الرياح آية كبرى ونعمة عظيمة، يقول تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيْكَ لَوَقِحَ فَأَنْزَلْنَامِنَ السَّمْلَةِ مَلَةً فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ وَمُكَا أَنْشُدُ لَهُ. السَّمْلَةِ مَلَةً فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ وَمُكَا أَنْشُدُ لَهُ. اللهُ الل

ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الْرِيْتَ بُشِرًا بَيْتَ يَدَى رَحْمَتِهِ ﴿ حَقَّى إِذَا أَقَلَتْ الرِيْتَ بَدَى رَحْمَتِهِ ﴿ حَقَى إِذَا أَقَلَتْ الرَّيْتِ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاعَ فَنْشِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ مَ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴿ الروم: ٨٤].

يقول ابن القيم: «فإذا شاء الله حرّكه بحركة الرحمة؛ فجعله رخاء ورحمة (٢) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٠٣.

وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحاً للسحاب يلقحه بحمل الماء، ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض كيف ينشئه سبحانه بالرياح؛ فتثيره كسفاً، ثم يؤلف بينه، ويضم بعضه إلى بعض، ثم تلقحه الريح وهي التي سماها -سبحانه- لواقح، ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه، فإذا علاها واستوى عليها؛ أهراق ماءه عليها، فيرسل سبحانه الرياح وهو في الجو، فتذروه وتفرقه؛ لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته، حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه؛ أقلع عنها وفارقها، فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح»(۱).

ويقول تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ الشَّمَآءِ مَآهُ فَأَخْرَجَ بِهِ، مِنَ الثَّمَرُتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَلَهِ مَلَمُ مِقَدَدٍ فَأَسَكَنَهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَندِرُونَ الله فَانشَأْنَا لَكُر بِهِ جَنْنَتٍ مِن فَيْدِلِ وَأَعْنَابٍ ﴾ [المؤمنون: ١٨ - ١٩].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي َ أَرْسَلَ الرَّيْتَ عَلَى اللّهُ الرَّيْتَ عَلَى اللّهُ اللّهُ مَلَهُ اللّهُ اللّهُ مَلَهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَلَمْ اللّهُ مَلَهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَلَمْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَلَمْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَلَمْ اللّهُ اللهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّلْمُلْلِمُلْلِمُلْلِمُلْمُلْمُلْمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ ا

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَهُ يَنْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرِيُونَ ﴿ تَانَتُمْ أَنَزُلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَعَنُ الْمُنزِلُونَ ﴿ الْوَاقِعةَ: فَشَاءً جَعَلْنَهُ أَجَاجًا فَلُولًا شَتَّكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٠ - ٧٠].

إن المطر نعمة عظيمة من الله على عباده؛ لأن حياة الحيوان والنبات متوقفة على الماء، والله وحده هو الذي ينزل علينا الماء من السحاب عذبًا فراتًا، ولم يجعله ملحًا أجاجًا، ثم يسكنه في الأرض؛ فيخرج ينابيع ويجري أنهارًا؛ لسقي الإنسان والحيوان والنبات والثمار في الجنات.

فانظر كيف تتجلى النعمة العظمى بإنزال المطر بالقدر المطلوب، لا كثيرًا فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلًا فلا يكفي الزروع والثمار، وكيف جعل في الأرض قابلية خزنه للاستفادة منه فيما بعد، ولو شاء الله أن لا تمطر السماء لفعل، ولو شاء جعله أجاجًا لفعل، ولو شاء ذهابه في أعماق الأرض بحيث لا ينال لفعل، فامتن الله على عباده إذن بكل هذه النعم؛ منبهًا إياهم لوجوب شكره.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهُ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَكُ يُغْرِجُ الْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُحْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَالِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُوْفَكُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥].

يقول الطبري: «وهذا تنبيه من الله جل ثناؤه هؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجته عليهم، وتعريفٌ منه لهم خطأ

⁽١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٠٢.

ما هم عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياهم، يقول تعالى ذكره: إن الذي له العبادة أيها الناس دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان هو الله، الذي فلق الحب، يعني: شقّ الحب من كل ما ينبت من النبات؛ فأخرج منه الزرع والنوى من كل ما يغرس مما له نواة؛ فأخرج منه الشجر»(١).

ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنزُلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْ مُنْهُ خَضِرًا مُّخْرِجُنَا مِنْهُ حَبَّنَا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلِّهِ اقِنْوَانُّ دَانِيَةٌ وَجَنَّتِ مِنْ أَعْنَابٍ وَالنَّهُ وَجَنَّتِ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّمْوُنَ وَالزُّمْوَةُ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآلِكُمْ لَآلِكُنتِ إِلَى تَمْوِهِ إِذَا أَنْعَلَمُ وَيَنْعِفِهُ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآلِكُمْ لَآلِكُمْ لَآلِكُمْ لَآلِكُمْ لَآلِكُمْ لَآلِكُمْ لَآلِكُمْ لَا يَعْمِ لِقَوْمِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

إِنَّ التفكير في النبات والثمار وكيفية تكونها من البذرة حتى صارت زرعًا أخضر وثمرًا طيبًا بعد جفافها، واختلاف ألوان الثمار وطعومها -مع كونها متشابهة في الشكل والورق-، لا شكّ يؤدي لمعرفة الله ووحدانيته؛ ولذلك حثّ الله على النظر للثمار فقال: ﴿اَنْظُرُوا إِلَى ثُمْرِهِ إِذَا النظر للثمار فقال: ﴿اَنْظُرُوا إِلَى ثُمْرِهِ إِذَا الله على وحدانية الله؛ لذلك ذم الله تعالى المشركين وحدانية الله؛ لذلك ذم الله تعالى المشركين بعد هذه الآية مباشرة فقال: ﴿ وَجَعَلُوا بِنَّهِ مِعْرَفًا لَهُ بَنِينَ وَبَنَدَ إِنَا مِعْرَد عِلَمَ عَمَّا يَصِعُونَ إِنَّهُ مَا يَصِعُونَ عَمَّا يَصِعُونَ الله عَلَى عَمَّا يَصِعُونَ الله عَلَى عَمَّا يَصِعُونَ الله عَلَى عَمَّا يَصِعُونَ الله عَلَيْ عَمَّا يَصِعُونَ وَبَنَدَ عِنْدَ عِلَمَا الله عَلَى عَمَّا يَصِعُونَ الله عَلَى عَمَّا يَصِعُونَ عَمَّا يَصِعُونَ عَمَّا يَصِعْوَنَ الله عَلَى عَمَّا يَصِعْوَنَ الله عَلَمَا الله على عَمَّا يَصِعْد عَلَى المشركين عَمَّا يَصِعْد عَلَى المَعْمَلُونَ عَمَّا يَصِعْمُونَ الله عَلَى المَعْمَلُونَ الله عَلَى عَمَّا يَصِعْمُونَ عَمَّا يَصِعْمُونَ الله عَلَى المُعْمَلُونَ الله عَلَى عَمَّا يَصِعْمُونَ عَمَّا يَصِعْمُونَ الله عَلَى الله عَلَى الله عَلَى عَمَّا يَصِعْمُونَ الله عَلَى الله عَلَى الله عَلَى الله عَلَى الله عَلَى الله عَلَيْ الله عَلَى الله عَلَى

بَدِيعُ ٱلسَّمَنوَتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدُّ وَلَدُّ وَلَمُّ وَلَمُّ وَلَمُّ وَلَمُّ وَلَمُّ تَكُن لَهُ صَنْحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُو بِكُلِ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ اللَّهُ ذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمٌ ۚ لَاۤ إِلَنهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلِ شَيْءٍ وَكِيلُ ﴾ [الأنعام: ١٠٠ - ١٠٢].

قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: «يا أيها الناس، إذا نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره، وعند ينعه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه؛ علمتم أن له مدبرًا ليس كمثله شيء، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد، وكان فيه حجج وبرهان وبيان يصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء»(٢).

إن العبد يشق الأرض ويضع فيها الحب، والزارع المنبت هو الله، دون الأنداد والأوثان، ولو شاء الله أن يجعل هذا الزرع حطامًا يابسًا قبل موعد حصاده ما استطاع أحد إنباته، وأقصى ما يعمله الإنسان هو التعجب والتفجع والحزن على ما فاته من الزرع والثمر، وإن الله تعالى ليضع الإنسان أمام عجزه وضعفه في أسلوب من الاستفهام المثير فيقول تعالى: ﴿ أَفَرَءَ يَتُمُ مَا تَعَرُّؤُونَ ﴿ آَمَ فَعَنُ الزَّرِعُونَهُ مَا فَطَلْتُمْ تَفَكُمُ وَنَ الله تعالى الزيمُونَ الزَّرِعُونَ الله تعالى الزيمُونَ الزَّرِعُونَ الله تعالى الرَّمُونَ النَّرِعُونَ الله تعالى الرَّمُونَ النَّرِعُونَ الله المثير فيقول تعالى: ﴿ أَفَرَءَ يَتُمُ النَّرِعُونَ الله المثير فيقول تعالى: ﴿ أَفَرَءَ يَتُمُ الزَّرِعُونَ الله المثير فيقول المثير فيقول تعالى: ﴿ أَفَرَءَ يَتُمُ النَّرِعُونَ الله المثير فيقول الله المثير فيقول المؤلفة المُن الزَّرِعُونَ الله المثير فيقول المؤلفة المُن الزَّرِعُونَ الله المثير فيقول اله المثير فيقول الله المثير فيقول المؤلفة المؤلفة

وقد استنكر الهدهد على قوم بلقيس

⁽٢) المصدر السابق ١١/ ٥٨٢ - ٥٨٣.

⁽۱) جامع البيان، الطبري ۱۱/ ٥٥٠.

سجودهم للشمس من دون الله، مستدلًا على وحدانية الله ووجوب إفراده بالعبادة؛ بأنه خلق الماء والنبات، وأخرجه بعد أن كان مخبوءًا في السماء والأرض، وجعل ذلك حجة على المخالفين، حيث قال تعالى عنه: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا بِلَهِ اللَّذِي يُغْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي السّمَوَتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا نُخْفُونَ وَمَا نُعْلِنُونَ ﴿ النّمَا لَا النّمَا اللَّهُ لَا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللّهُ إِلَّا هُو رَبُّ ٱلْهَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٥].

ومن مجموع هذه النعم من رياح وسحاب ومطر ونبات؛ يمتن الله جل وعلا على عباده بالرزق؛ فهو الذي يرزقهم، ويرزق ما على الأرض من دواب، لا تستطيع أن تتكفل برزق نفسها.

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيْنِ مِن دَاَبَتِهِ لَا خَمِّلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت ٢٠].

الصورة الرابعة: الآيات والنعم في الأنعام.

آية الله جل وعلا في الأنعام عظيمة،

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٦.

وعجيب صنعه فيها بالغ، وليس أدل على ذلك من أن الله تبارك وتعالى قد قرنها بآيات السماء والأرض والجبال في سياق، بل وابتدأ بها في توبيخ المشركين الغافلين عن النظر إليها نظر الاعتبار والافتكار، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ تَعالى: ﴿ أَفَلَا يَظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ اللهِ وَإِلَى ٱلنَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿ وَإِلَى ٱلنَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿ وَإِلَى ٱلْجَبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ الغاشية: ١٧-٢٠].

ولا شك أن للأنعام في حياة العرب بالبادية ما يستحق أن يذكّروا به، وأن يسجّل فضله عليهم بها، فكانت الإبل دليلًا قريبًا ينبغي أن توجّه أنظارهم إليه.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم يِّمَا عَمِلَتُ أَيْدِينَا أَنْعَكُمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿ اللَّهُ مَلِكُونَ ﴿ اللَّهُ مُلِكُونَ اللَّهُ مُلْكُونَ اللَّهُ مَا مَلِكُونَ ﴿ اللَّهُ مَا اللَّهُ مَا مَلِكُونَ اللَّهُ مَا مَلَا مَلْكُونَ اللَّهُ مَا مَلْكُونَ اللَّهُ مَا مَلْكُونَ اللَّهُ مَا مُنْ اللَّهُ مَا مُنْ اللَّهُ مَا مُعَلَّمُ اللَّهُ مَا مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُلَّهُ مُنْ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ مُنْ اللَّالِمُ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللّ

وقال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالُ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ نَتْرَحُونَ ۞ وَتَعْمِلُ أَتْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُواْ بَلِفِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ اللهِ بَشِقِ ٱلْأَنفُسِ اللهِ وَيَكُمُ لَرَهُوفُ رَحِيمٌ ۞ وَالْحَيَلَ وَالْفِفَالَ وَالْحَمِيرَ لِنَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَعْلُقُ مَا لَا قَدَّلُمُونَ ﴾ [النحل: ٢- ٨].

النعمة الأولى في الأنعام هي نعمة تذليلها؛ لأن الله وحده هو الذي جعلها مقهورة ذليلة، لا تمتنع على صاحبها عند الحاجة إليها في تسييرها وتوجيهها للرعي أو للطرق، أو للحمل، أو للوقوف، ويرتبط

بتذليلها كونها جمالًا وزينة لنا في رجوعها من المرعى عشيًا؛ فتكون شبعانة وخواصرها مليئة، وفي بعثها صباحًا إلى المرعى، ولولا تذليلها ما كانت زينة وجمالًا؛ لأنها تكون نافرة مستعصية.

وقال تعالى: ﴿ لِتَسْتَوْرًا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكُرُوا نِعْمَةَ رَبِكُمُ إِنَا اسْتَوَيَّمُ عَلَيْهِ وَتَغُولُوا تَخَمَّ إِنَا اسْتَوَيَّمُ عَلَيْهِ وَتَغُولُوا سُبْحَن الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَلذَا وَمَا كُنَا لَهُ مُعْرِنِينَ اللهِ وَإِنَّا إِلَى رَبِنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٣ - ١٤].

إن نعمة ركوب الأنعام والحمل عليها تلفت النظر وتوجب الشكر؛ لأنها توفّر كثيرًا من الجهد والتعب، فيستطيع الإنسان السير في المصالح البعيدة كالحج والغزو والتجارة بلا مشقة؛ لأن هذه الأنعام تحمله، وتحمل متاعه وطعامه وشرابه، وبدون هذه الأنعام فإن الإنسان عاجزٌ عن ذلك، وتظهر نعمة الحمل والركوب بشكل خاص في الخيل والبغال والحمير؛ ولذلك أفردت الخيل والبغال والحمير؛ ولذلك أفردت معًا في آية خاصة بها فقال تعالى: ﴿ وَلَلْهَالُ وَالْحَمِيرُ لِرَّكَبُوهَا ﴾ [النحل: ٨].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُونِ فِي ٱلْأَنْفَادِ لَعِبْرَةً شُتِقِيكُمْ مِنَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْيْثٍ وَدَمِ لَبَنَّا خَالِصًا سَآبِغًا لِلشَّدرِيِينَ ﴾ [النحل: ٢٦].

وقال تَعالَى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَسَارِبُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ

اللبن نعمة لا توصف على هذه البشرية؛

لأن مصالح العباد كلهم قائمة عليه في معظم وجباتهم الغذائية، وخاصة الصغار، وهذا اللبن يخرج من بطون الأنعام من بين الفرث والدم خالصًا بياضه وطعمه وحلاوته، فانظر كيف يكون الطعام في المعدة؟!

فإذا نضج ذهب أقسامًا للدم والعظم واللحم، وقسم يصير لبنًا، والباقي فضلات من روث وبول، ولا يمتزج قسم بآخر ولا يتغير به؛ فيخرج اللبن خالصًا سائغًا للشاربين لا يغص به أحد.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُونَ ﴾ [يس: ٧٧].

هذه النعمة خاتمة النعم في الأنعام، فرغم تعدد منافع الأنعام في حياتهم، فهي كذلك يؤكل لحمها، وهو أعلى أنواع الأطعمة، وعليه اعتماد كبير في حياة الناس، بل إن شعوبًا كثيرة تعيش على الرعي والتجارة بالأنعام اللاحمة (١).

إن هذه النعم الكثيرة في الأنعام تستحق الشكر لله، والاعتراف بوحدانيته، وإفراده بالعبادة، وإخلاص الطاعة له، وهذا هو المقصود الأعظم من التذكير بهذه النعم الجليلة؛ لذلك نجد في الآيات دعوة لشكر الله، وعدم اتباع خطوات الشيطان.

⁽۱) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٤٨-٢٥١.

يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَكِمِ حَمُولَةُ وَفَرُشَاً حَالُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَلَيِعُوا خُطُونِ ٱلشَّيَطُانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوُّ مَٰبِينٌ ﴾ [الأنعام: 187].

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآيات في سورة النحل: «وإن الله جلّ ثناؤه إنما عرّف عباده بهذه الآية وسائر ما في أوائل هذه السورة نعمته عليهم، ونبّههم به على حججه عليهم، وأدلته على وحدانيته، وخطّاً فعل من يشرك به من أهل الشرك»(١).

وقال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى في سورة يس بعد ذكر نعمة الأنعام: ﴿أَفَلًا يَمْمُكُرُونَ ﴾، قال: «أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخّره، ولا يشركون به غيره؟!»(٢).

الصورة الخامسة: نعمة البيوت وآيتها.

ويوجّه القرآن الكريم أنظار البشر إلى النعمة الكبرى التي أودعها قلوبهم، وهي نعمة الهدوء والسكينة، يحسون بها عند ما يعودون إلى بيوتهم، مكدودين منهوكي القوى، وإلى هدايتهم إلى بناء بيوت من جلود الأنعام، يجدونها خفيفة المحمل في الظعن والإقامة، وإلى اتخاذ أثاثهم وأمتعتهم من أصوافها وأوبارها، وإلى نعمة الظل يجدون عنده الأمن والاستقرار، وإن للشمس وحرارتها لوقعًا مؤلمًا في النفوس وعلى الأجسام، ومن أجمل وسائل الاستتار هذه الثياب، تقي صاحبها الحر، وبها تتم نعمة الله، فيقول: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنَ يُوتِكُمْ سَكُنَّا وَجَعَلَ لَكُمْ مِن جُلُودِ ٱلْأَنْعَلَىم بُوْتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعَيْكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأُوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمُتَلِعًا إِلَىٰ حِينِ ۞ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَكُ لَكُو مِنَ ٱلْجِبَالِ أَكُنَّا وَجَعَلَ لَكُمُ سَرَبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ عَلَيْكَ ٱلْبَلَنَعُ بَأْسَكُمْ كَنَالِكَ يُبِيَدُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمُ تُسَلِمُونَ ﴾ [النحل ٨٠ - ٨١](٣).

⁽۱) جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٧٣.

⁽٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٩٢.

⁽٣) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٤.

الصورة السادسة: آية ونعمة الأزواج.

ويوجه القرآن الكريم أنظار البشر أيضًا إلى ما في خلق الزوج من نعمة تسكن إليها النفس، وتجد في ظلها الرحمة والمودة، فيقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَنتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمُ مِنْ أَنفُسِكُمُ أَزْفَكِمًا لِتَسَكُنُوا إِلَيْهَا وَيَحْعَلَ مِنْ أَنفُسِكُمُ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآينَتِ لِقَوْمِ يَئفَكُرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

إن التفكر في احتياج الكائنات وافتقارها إلى الزوجية، ووجودها بهذه الثنائية «الذكر والأنثى»، لأمرٌ يدفع إلى تسبيح وتقديس الإله العظيم ذي الوحدانية، الذي لم تكن له صاحبة، إنها آية عظيمة تدعو إلى تذكّر التوحيد.

يقول تعالى: ﴿ وَمِن كُلِ شَيْءٍ خَلَفَنَا رَوْجَيْنِ لَعَلَكُمْ نَذَكَّرُونَ آنَ فَعُرُّوا إِلَى اللهِ إِنِ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ شِينٌ ﴿ وَلَا جَعَمَلُوا مَعَ اللهِ إِلَنَهَا ءَاخَرٌ ۚ إِنِّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٤٩-٥].

ختامًا: فإن في إكثار القرآن من الحديث عن هذه النعم، وتوجيه أنظارهم إليها، وتقريرهم بها، ما يدفعهم إلى التفكير في مصدرها، وأنه جدير بالعبادة، ولا سيما أن تلك النعم ليست في طاقة بشر، وأنها باعترافهم أنفسهم من خلق العليّ القدير، وهكذا يتكئ القرآن على عاطفة إنسانية يثيرها؛ لتدفع صاحبها إلى الإيمان بالله

وإجلاله وتقديسه، وإلى عبادته عبادة منبعثة عن حبه وشكر أياديه(١).

ثالثًا: الأدلة العقلية:

وهي الأدلة التي تعتمد على عمليات نظرية وفكرية، كترتيب المقدمات واستخراج نتائجها، حسب ضوابط وقوانين وراء بداهة الحسّ ومشاعر النفس، وإن كان الإدراك في الجميع راجعًا إلى العقل (٢).

فهذا تنبيه إلى أن أدلة القرآن كلها سمعية عقلية، سمعية؛ لورودها في القرآن، وعقلية؛ لأن للعقل قدرة على التفكير فيها، والنظر والاعتبار إذا سلك المسلك الصحيح (٣).

ولكنا نتوسع هنا بذكر بعض الأدلة التي لم تندرج تحت ما سبق ذكره من أدلة توحيد الله، وأيضًا قد لوحظ فيها عناية القرآن بنظمها بأسلوب جدليً مرتب مقصود للمناظرة والمحاجّة ابتداءً، وهذا أسلوب يختلف قليلا عن أسلوب الشواهد القرآنية السابقة في أدلة الآيات الكونية، فالأسلوب هناك سمته الأوضح هي السّرد والحشد للصّور والمشاهد، ويأتي التدليل والتعليل للوحدانية في ركاب السياق والسباق.

⁽١) المصدر السابق ص ١٩٦.

⁽۲) التفسير الموضوعي ج ۱، جامعة المدينة ص٣٦.

⁽٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦٠.

وقد استخرج العلماء من الأدلة العقلية القرآنية لتقرير التوحيد أنواعًا.

١. الدليل البدهي.

هو دليل (بدهي) لأنه يقوم على استخدام الحقائق المشهورة والبدهيات المستقرة، في ابتناء الدليل عليها، فيذعن الخصم للدليل إذعانًا إن كان منصفًا.

وهو دليل الخلق والملك؛ لأنه مبني على أصلين:

أن الموجودات مخترعة.

وأن كل مخترع لابدّ له من مخترع ومالكِ(١).

ونأخذ لهذا الدليل أمثلةً من آيات القرآن الكريم في نفي الولد عن الله.

فنجد القرآن الكريم قد حدثنا في صراحة عن أن الله جل وعلا ليس في حاجة إلى هذا الولد، يعينه أو يساعده، فكل من في الوجود خاضع لأمره، لا يلبث أن ينقاد إذا دعى.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا التَّخَذَ اللَّهُ وَلَدَاً سُبْحَنَةٌ بَل لَهُ مَا فِي السَّمَوَتِ وَالأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَنِنْوُنَ ﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا لَهُ قَنَىٰ آمْرًا فَإِنَّمَا يَعُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: عَنَىٰ آمْرًا فَإِنَّمَا يَعُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة:

وحينًا يدفع ذلك دفعًا طبيعيًّا: بأن الولد لا يكون إلا إذا كان ثمة له زوجة تلد، أما وقد

ويعرض مرة أخرى لهذه الدعوى، فيقرر غناه عن هذا الولد، ولم يحتاج إليه، وله ما في السموات وما في الأرض.

يقول تعالى: ﴿ قَالُواْ اتَّخَكَ اللّهُ وَلَكُأُ شَبْحَننَةُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِ السّمَكُوتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِن شُلطتِن عَهَادًا أَنَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴿ اللّهَ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ ٱلكَّذِبَ لَا يُقْلِحُونَ ﴾ [يونس: ٢٨ - ٢٩].

ويعجب القرآن: كيف يتوهم للمشركين أن يخصوا أنفسهم بالبنين، ويجعلوا البنات لله؟! فيقول: ﴿ أَفَأَصْفَنَكُو رَيُّكُم بِالْبَنِينَ وَأَشَّذَ مِنَ الْمَلَيِكَةِ إِنَّنَا إِلَّكُو لَنَقُولُونَ قَوَّلًا عَظِيمًا ﴾ والإسراء: ٤٠].

ويصور القرآن - في أقوى صور التعبير -موقف الطبيعة الساخطة المستعظمة نسبة الولد إلى الله، فتكاد - لشدة غضبها - أن تنفجر غيظا، وتنشق ثورة، وتخر الراسيات لهول هذا الافتراء، وضخامة هذا الكذب.

وأصغ إلى تصوير هذا الغضب في قوله: ﴿ وَقَالُواْ اَتَّخَذَ الرَّمْنُ وَلِدًا ۞ لَقَدْ حِثْتُمُ شَيْنًا إِذًا ۞ تَكَادُ السَّمَنوَتُ يَنَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَيَشَقُّ الْأَرْضُ وَيَخِرُ لَلْبَالُ هَدًّا ۞ أَن

خلق كل شيء، فليس ما يزعمونه ولدًا سوى خلق من خلق: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَتِ وَٱلْأَرْضُ خلق ممن خلق: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَتِ وَٱلْأَرْضُ آنَ يَكُونُ لَهُ، وَلَدُّوَلَمْ تَكُن لَهُ صَنْرِجَةٌ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٌ وَهُوَ بِكُلِ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

⁽۱) التفسير الموضوعي ج ۱، جامعة المدينة ص ٣٧.

دَعَوْا لِلرِّمْنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨- ٩١](١).

فهذا الدليل (دليل الخلق والملك) دليل عقليًّ يتكامل مع الأدلة الحسية الكونية السابقة، فمتى تدبر الإنسان تلك الآيات والشواهد؛ استنتج منها: أن كل ما في الكون مخلوق، والمخلوق لابد له من خالق؛ لأنه يستحيل أن يكون خلق من غير خالق، والخالق يجب أن يكون ممتازًا عن المخلوق بكل وجهٍ، وإلا لما كان بينهما فرقٌ.

٢. دليل التمانع.

ويسمى دليل النظام أو التناسق؛ لأنه ينطلق بناضمن الآيات الكونية؛ ليوصلنا إلى أن الذي نظم الكون وربط أجزاءه -بحيث يكمل بعضها بعضًا-، وقدر كل شيء فيه تقديرًا، هو الله الواحد الأحد، ويمتنع أن يكون له تعالى أيّ شريكِ في ألوهيته أو ربوبيته؛ لأنّ ذلك سيفضي حتمًا إلى الخلل والفساد.

ومن الآيات التي قرر القرآن فيها هذا الدليل: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَا لَهُ اللَّهُ لَفُسَدَتَأَ فَسُبُحُنَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِمْعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وتوضيح الآية الكريمة أن يقال: لو كان للعالم صانعان لكان تدبيرهما لا يجري

على نظام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما؛ وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فحينئذ إما أن تنفذ إرادتهما معًا، فيتناقض النظام لاجتماع الضدين، وإما ألا تنفذ إرادتهما معًا؛ فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما؛ فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزًا؛ فيطل ما أدى إليه، وهو افتراض التعدد، وثبت نقيضه، وهو الوحدانية (٢).

٣. دليل الفرض والتسليم.

وهذا النوع من الاستدلال يقوم على التسليم بدعوى الخصم تسليمًا جدليًّا -ولو كانت دعواه مستحيلة-، ثم يستدل على إبطال الدعوى بالنتائج الخاطئة المتناقضة التي تترتب على هذه الدعوى.

ومثاله: قوله تعالى: ﴿ مَا أَتَّفَ ذَاللَّهُ مِن وَلَهِ وَمَا صَالَحَ ذَاللَّهُ مِن وَلَهِ وَمَا صَالَحَ اللهِ مِمَا وَمَا صَالَتَ مَعَهُ مِنْ إِلَهُ إِذَا لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهِ مِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضِ أَسَبَحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِغُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فالحقيقة أن لا إله إلا الله، ولم يتخذ الله سبحانه وتعالى ولدًا، ولكننا لو سلمنا جدلًا بهذا الافتراض الخاطئ فما هي النتائج التي تترتب على ذلك استعلاء بعضهم على بعضٍ؛ فلا ينتظم أمر الكون، ولا ينفذ فيه حكم، ولا تتحقق مصلحة،

⁽٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦٠.



ومن ثمّ ففي ذلك اختلال نظام المخلوقات واستحالة استمراره.

والواقع المشاهد خلاف ذلك؛ فدل هذا الواقع على أن تعدد الآلهة محال لما يلزم عليه من المحال، كما أن افتراض وجود آلهة متعددة يؤدي إلى استعلاء بعضهم على بعض، ومنع كل منهم غيره من التدخل في شؤونه، وهو محال مصادم لما تستلزمه صفات الكمال المطلق للإله المعبود بحقّ.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ وَ عَالِمَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بَنَغَوّا إِلَى ذِى ٱلْمُرْفِي سَبِيلًا ﴿ اللهِ اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ عَمّا يَقُولُونَ عُلُوًا كَبِيرًا ﴾ (١).

٤. الشرك ظنون وأوهام.

ولمّا كانوا عاجزين عن إتيان ذلك، بيّن

القرآن الكريم حقيقة عقائدهم، وأنها مجرّد ظنونِ فاسدةٍ.

قال تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ مِاللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظُنَّ اَلْمُعَلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وَ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا اَسْتَجَابُواْ لَكُوْ وَبَوْمَ الْقِينَمَةِ يَكْفُرُونَ بِمِعُواْ مَا اَسْتَجَابُواْ لَكُوْ وَبَوْمَ الْقِينَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَيِّنُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿ [فاطر: يُشِرْكِكُمُ وَلَا يُنَيِّنُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: 18].

أو يليق بالعاقل أن يعبد من دونه، ومن يراه عاجزًا لا يستطيع شيئًا؟! ولم يعبد المرء إلهًا لا يسمع دعاءه، ولا يستطيع أن يجيبه إلى مبتغاه، ولا يقدر على أن يرد عن عابده أذى نزل به.

قال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ عَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلفُّرِ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦].

وإذا استنصره لم يجد عنده ما يؤمل من

⁽۱) مباحث من التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ۱۵۳–۱۵۶.

النصر، والمرء عند الشدائد يلجأ إلى الله، ويطلب منه المعونة والمساعدة، فماذا يصنع بعبادة إله لا يمده بهما؟! بل إن هذه الأوثان لا تستطيع أن تحمي نفسها، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدَّعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَفسها، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدَّعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَفسها، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدُعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَفسها، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدُعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَفسها، ﴿وَٱللَّذِينَ تَدُعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَفسها، ﴿ وَاللَّهِ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللَّهُ الللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ

وأي ضلال أشد من عبادة من لا يملك الضر والنفع؟ وماذا بقي لهم من صفات الآلهة؟!، أخلقوا شيئًا في السماوات والأرض؟ أبأيديهم الموت والحياة والبعث؟ لا: ﴿وَاتَّخَدُواْ مِن دُونِهِ مَالِهَةً لَا يَخَلُقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا يَعْمَلُ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا يَعْمَلُ وَلَا يَعْمَلُونَ وَلَا يَعْلَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَى اللَّهُ وَلَا يَعْمَلُونَ وَلَا يَعْلَا وَلَا يَعْمَلُونَ وَلَا يَعْمَلُونَ مَوْتًا وَلَا يَعْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا يَعْمُ وَلَا يَعْمُونَ وَلَا يَعْمُ وَلَا يَعْمَلُونَ مَوْلًا وَلَا يَعْمُ وَلَا لَا عَلَا يَعْمُ وَلَا يَعْمُ وَلَا يَعْمُ وَلَا يَعْمُ وَلَا لَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا يَعْمُ وَلَا يَعْمُ وَلَا يَعْمُ وَلَا عَلَا عَلَا عِلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَالْ عَلَا عَالِعَالَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا ع

والقرآن يمضي في التحدي، مؤكّدًا لهم أن أولئك الذين يدعونهم شركاء لله لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا، ولو ظاهر بعضهم بعضًا، برغم حقارة الذباب وضعفه، بل إن هذا الذباب الحقير الضعيف لا يستطيعون استخلاص شيء منه، إن سلبهم إياه، ويَكَأيّهُا ٱلنّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ أَلِنَا لَنَاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ لَكُ اللّهِ لَن يَعْلَقُوا لَهُ وَإِن اللّهِ لَن يَعْلَقُوا اللّهِ اللّهُ اللّهُ اللّهِ اللّهُ اللّهِ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهِ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللللّهُ الللللّهُ اللّهُ

وإذا كانوا لم يخلقوا شيئًا، فهل يملكون من شيء في السماء أو الأرض؟ لا،

إنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةِ فِ السَّمَنُونِ وَلَا فِي الْمُرْتِضِ ﴾ [سبأ: ٢٢].

وإذا كانت هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر، ولا تملك من أمر نفسها شيئًا، ولا تخلق شيئًا، وليس بيدها حياة ولا موت، بل هي أقل من عابديها قدرًا، فقد انمحت عنها حقيقة الألوهية، ولا يعدو الأمر بعدئذ: أن تكون المسألة أسماء وضعوها، من غير أن تدل هذه الأسماء على آلهة حقيقية لها ما للآلهة من سلطان وقوة، وتستحق العبادة رغبة أو رهبة، ﴿ أَفَرَءَيْمُ اللَّتَ وَالْعُزَى اللَّهُ وَكُمُ الدُّنُونَ النَّالِكَةَ الْأَخْرَى اللَّهُ أَللَّتَ وَالْعُزَى اللَّهُ الدَّكُمُ الدَّكُرُ ولَهُ أَلْمُنَى اللَّهُ مِنَا اللَّهُ مَا أَنْزَلُ اللَّهُ مَا اللَّهُ اللَّهُ مَا اللَّهُ اللَّهُ مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّه

وها هو ذا يتهكم بهم تهكما لاذعًا عندما منحوا هذه الأسماء التي لا حقيقة لها صفة الشفعاء؛ فيقول: ﴿ وَيَمّبُدُونَ مِن دُونِ الشّفعاء؛ فيقول: ﴿ وَيَمّبُدُونَ مِن دُونِ السَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَنُولُا مِن مُنفَعِدُ وَيَقُولُونَ هَنُولُا مِن مُنفَعِدُ وَيَقُولُونَ اللّهِ مِمَا لَا يَمْلُمُ فِي السّمَواتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ اللّهَ مِمَا لَا يَمْلُمُ فِي السّمَواتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ اللّهَ مِمَا لَا يَمْلُمُ فِي السّمَواتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ اللّهَ مِمَا وَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

والقرآن يثير في نفوسهم الخوف والفزع من سوء المصير، حين يصوّر لهم يوم القيامة، وما ينالهم فيه من خيبة الأمل، عندما يرون هذه الآلهة التي اتخذوها؛ ليعتزوا بها، قد أنكرت أن تكون أهلًا

لعبادتهم، ويشهدون عليهم بأنهم لم يكونوا عقلاء في هذه العبادة، فيقول: ﴿وَالْغَنَدُواْ مِن كَلَاً دُوسِ اللهِ عَزَا اللهِ كَلَا اللهِ عَزَا اللهِ كَلَاً مَن اللهِ عَزَا اللهِ كَلَاً مَن اللهِ عَزَا اللهِ عَزَا اللهِ عَلَيْم ضِدًا ﴾ سَيَكُفُرُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًا ﴾ [مريم: ٨١- ٨٢](١).

موضوعات ذات صلة:

الألوهية، الإيمان، الدعوة، الشرك

⁽١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٥٥-٢٥٧.